

أَبُو الْحَسَنِ النَّزَوِي

# الإسلام

أشهره في الحضارة  
وفضله على الإنسانية



أبو الحسن الندوى

# الإسلام

أشهره في الحضارة  
وفضله على الإنسانية

بحث تاريخي وتحليلي لآثار الإسلام  
والبعثة المحمدية في الحضارة الإنسانية ،  
استعراض منصف ، ودراسة مقارنة ،  
وبحث علمي محايد ، وتصوير الواقع

أبو الحسن الندوي

الإسلام

أثره في الحضارة

وفضله على الإنسانية

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



بسم الله الرحمن الرحيم

## هذا الكتاب

(بقلم مؤلفه)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده !

أما بعد ، فإن كاتب هذا المقال وجهت إليه دعوة من المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، التابع لوزارة الإعلام فى الكويت ، لإلقاء محاضرة على موضوع « الإسلام والحضارة الإنسانية » بمناسبة بدأ القرن الخامس عشر الهجرى الذى احتفل به فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى بطرق متعددة وألوان مختلفة (١) وقد صادف هذا

---

(١) كان من ضمنها الاحتفال الذى عقدته المنظمة الإسلامية للطلاب فى ٢٢/ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠ هـ فى قاعة المحاضرات الكبرى فى عاصمة الولاية الشمالية ( لكةنو - الهند ) وكان من آثاره ومخلفاته المفيدة الباقية ، حديث كاتب هذه السطور نشر بعده بعنوان « القرن الخامس عشر الهجرى الجديد فى ضوء التاريخ والوقائع » فى اللغات الثلاث الأردية ، والعربية والانجليزية ، وكان له صدى وتلق كريم فى الأوساط الدينية والعلمية .

الاقتراح تجاوباً نفسياً وفكرياً في نفس الكاتب ، لشعوره بأهمية هذا الموضوع وجديته ، ولاشتغاله بالبحث والكتابة فيما يتصل بهذا الموضوع ويساعد على التوسع فيه — إذا دعت إليه الحاجة — والتركيز عليه — إذا طلب منه التركيز — قراءة وكتابة ، وتأملاً وتفكيراً ، فقبل هذه الدعوة الكريمة الهادفة التي جاءت من بلد إسلامي عربي ، وأعد لذلك بحثاً في مقدمة قليلة وعلى تراحم من الأشغال وتتابع من الرحلات والتنقلات .

ونظمت الحفلة وزارة الإعلام في الكويت ، وألقيت المحاضرة على مدرج كلية العلوم في جامعة الكويت بالخالدية ، مساء يوم الأربعاء ١٨ صفر ١٤٠٤ هـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ م ، حضرتها الشخصيات البارزة وكبار العلماء المثقفين في البلد ، وقرئ أكثر هذا المقال في حفلة كبيرة أيضاً في نادي مكة الثقافي سلخ صفر ١٤٠٤ هـ ( ٦ من ديسمبر ١٩٨٣ م ) وطبع في مجموعة « أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين » ( ٢ ) .

ولكن المقال — على ما جاء فيه من أسس قوية صالحة ، ولفترات منيرة مثيرة في الموضوع — يغلب عليه الطابع الارتجالي والاستعراض السريع بما يتصل بهذا الموضوع بنسب قريب أو بعيد ، لضيق الوقت وانشغال خاطر .

---

(٢) ص/ ٦٣ — ٨٠ ، طبع دار عرفات ، رائي بريلي — الهند .

ثم جاءت الكاتب دعوة من الأمانة العامة للمؤتمر  
العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية المزمع عقده فى رحاب  
الأزهر الشريف فى القاهرة ، ومعها قائمة الموضوعات المقترح  
تقديمها لهذا المؤتمر ، ومن ضمنها « أثر الرسالة الإسلامية  
فى الحضارة الإنسانية » فحركت هذه الدعوة وهذا الموضوع  
المقترح الرغبة فى التوسع فى هذا الموضوع ، وشغل خاطر  
بعد ما كان الكاتب قد انتهى من التفكير فيه ، وملك عليه  
فكره وأعصابه واستحوذ على مشاعره ، شأنه فى مثل هذه  
الموضوعات والأغراض الكتابية ، فبدأ يدرسه من جديد ،  
ويضع له العناوين الجانبية ، وفى شرح جوانب ومجالات فى  
حياة الأمم والشعوب والحضارة ظهرت فيها التأثيرات  
الإسلامية فى أجلى أشكالها ، وفى بيان المعطيات الهامة والمنح  
الأساسية للإسلام والبعثة المحمدية ، مورداً مواد جديدة ،  
ودلائل قوية ، وشهادات أجنبية ، حولت المحاضرة من مقال  
يكتب على عجل ، إلى رسالة مدروسة ضافية ، وبحث علمى  
تاريخى ، يسترعى انتباه الباحثين والمنصفين من المسلمين وغير  
المسلمين ، ويستحق أن ينقل إلى لغات أجنبية ويقدم إلى  
الطبقة المثقفة المتهينة لقبول الحق والواقع ، وشهادات التاريخ  
واعترافات الفضلاء الأجانب ، وأقطاب الفكر والبحث فى العالم  
الغربى وفى شبه القارة الهندية .

ولم يتحاش الكاتب ولم يمنعه التواضع ، عن أن ينقل

ما صدر عن قلمه في بعض جوانب هذا الموضوع في كتاباته السابقة وفي بعض مؤلفاته ، إذا رأى أنه قد وفي الموضوع حقه ، ولا يستطيع أن يأتي بأحسن منه ، فإن كل كاتب ومؤلف يجرب « نفحات » لا يقدر عليها في كل وقت وفي كل مكان ، ولا يعاب كاتب أو مؤلف على أن يستعير من نفسه لنفسه ، ويقتبس من كتاباته ومؤلفاته ما يشاء .

وقد يجد القارئ المتتبع لكتابات كاتب هذه السطور ومؤلفاته مقتطفات قد قرأها في كتاب المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » أو « السيرة النبوية » فضلاً عما جاء في مجموعة « أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين » ولكن عملية التركيب والمزج والاقتراس والنقل ، قد جعلت هذا الكتاب الصغير كتاباً جديداً مستقلاً بنفسه ، له شخصية كتابية متميزة ، منسجمة مزدوجة ، مترتبة موحدة .

ولما بلغ الكاتب خبر تأجيل المؤتمر الدولي الرابع للسيرة والسنة النبوية الذي كان من دواعي إقبال المؤلف على هذا الموضوع من جديد ، وذلك من غير تحديد للميعاد ، رأى أن ينشر هذا الكتاب لما فيه من مادة للتفكير ، ومدد للعاملين والمشتغلين في مجالات الدعوة ، وباعث للكتاب والباحثين ، الذين أكرمهم الله بسعة من العلم ورحابة في الصدر ،

وشجاعة في الاعتراف بالحق على التوسع في هذا الموضوع ،  
والوفاء له بجدارة واستحقاق ، وقد أسمينا هذا البحث  
الموسع — الذي أصبح أضعافاً مضاعفة بالنسبة إلى المقال  
الأول — «الإسلام ، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية»  
— وعلى الله قصد السبيل •

أبو الحسن على الحسنى الندوى



## الإسلام

### أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

### سعة الموضوع وعاليته :

إن موضوع « الإسلام وأثره في الحضارة » موضوع واقعي حيوي ، ليس وثيق الصلة بالبعثة المحمدية ورسالة الإسلام وتعاليمه فحسب ، بل بواقع الحياة وحاضر الإنسانية ومستقبلها ، ودور الأمة الإسلامية في بناء الحضارة وتوجيهها كذلك ، والموضوع أليق بعمل مجمعي منه بمجهود فردي ، فإن الموضوع بطبيعته عالمي إنساني يمتد على عدة مساحات واسعة مختلفة ، فالمساحة الزمانية تمتد من القرن الإسلامي الأول إلى هذا القرن الذي نلتقي فيه ، والمساحة المكانية تمتد من أقصى العالم إلى أقصى العالم ، والمساحة المعنوية تمتد من مجال العقيدة إلى مجال الأخلاق والسلوك ، ومن مجال الاجتماع والحياة المنزلية والفردية ، إلى مجال السياسة والتشريع والقانون ، وعلاقات الشعوب والأمم بعضها ببعض ،



ومن مجال أنماط المدنية الراقية ، إلى مجال الفن المعماري والأدب والشعر ، والذوق الرفيع .

وكل مساحة من هذه المساحات مساحة واسعة ، ذات جوانب عديدة فسيحة ، فلا يفي بحق هذا الموضوع إلا مجمع علمى مكون من أساتذة بارعين أصحاب الاختصاص فى مادتهم التى لها اتصال وثيق بهذا الموضوع الذى ينوء بالعصبة أولى القوة فى العلم والدراسة ، الأمانة النزيهة فى الحكم على الأشياء ، الجرئية فى إبداء الرأى والنتائج العلمية ، فيقوم أحد الأساتذة بجانب العقيدة والتفكير الدينى ، ويقوم آخر بجانب الاجتماع ، والثالث بجانب التشريع والقانون ، والرابع بمبدأ الحرية والمساواة ، والخامس بحقوق المرأة ومنزلتها فى المجتمع ، وهكذا يتضح أن هذا الموضوع أجدر بموسوعة خاصة فضلا عن كتاب ، فضلا عن بحث يعد فى وقت قصير وعلى تشتيت بال وتراحم أشغال ، ولكن كما قال الأولون : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » ولا أبلغ من قول الله تعالى : « فإن لم يصبها وابل فطل » (١) .

### أصعب العمليات وأدقها :

إن من أصعب العمليات وأدقها هو تحليل الحضارة التى اختمرت ، تحليلًا كيميائيًا وفرز العناصر التى دخلت فيها فى عهود مختلفة ، وفترات تاريخية معينة ، وإرجاعها إلى

---

(١) سورة البقرة ٢٦٥ .

أصلها ومصدرها ، وتحديد مقاديرها ومداهما من التأثير والقبول ،  
وتعيين من يرجع إليه الفضل في هذا العطاء الحضارى والتغيير  
الجزرى ، فقد دخلت هذه العناصر والتأثيرات في الهيكل  
الحضارى والمجتمع البشرى وتغلغت في أحشائها وجرت  
منهما مجرى الروح والدم ، وتفاعلت وتكون منهما مزاج  
خاص بهذه الحضارة ، شأن عوامل التكوين والتربية والبيئة  
والأغذية في حياة الفرد وتكوين شخصيته الخاصة ، وإلى  
الآن لم يخترع معمل كيميائى يباشر عمل التحليل التاريخى ،  
ولا مجهر ( الميكروسكوب ) (Microscope) يضخم هذه  
الأجزاء الدقيقة التى لعبت دورها في تكوين الحضارة تكويناً  
خاصاً .

إذاً لابد من دراسة عميقة واسعة لتاريخ الشعوب  
والأمم والبلاد والمجتمعات ، حتى نستطيع أن نقارن بين  
ماضيها وحاضرها ونهتدى إلى عمل الدعوة الإسلامية والبعثة  
المحمدية في تغيير العقيدة وإصلاحها ، والقضاء على آثار  
الجاهلية والفلسفات الوثنية والتقاليد الموروثة ، وتحويل  
التيار الفكرى من جهة إلى جهة ، والتغيير الثورى في القيم  
والمثل وتناول المدنيات بالتهذيب والتحسين ، وذلك يحتاج  
إلى دراسات مضمّنية ، وإجهد نفسى وعقلى ، ولكنه عمل مفيد ،  
إذا لم توفق له مؤسسة علمية كيونسكو (Unesco)

أو مجمع في أوروبا وأمريكا بطبيعة الحال ، فلا بد أن يخصص  
له مجمع علمى في إحدى عواصم الشرق الإسلامى أو جامعة  
من الجامعات الإسلامية ، ولا شك أنه أنفع وأجدر من كثير من

الأعمال العلمية التي تضطلع بها هذه الجامعات والجامعات  
وتجند لها طاقاتها ووسائلها •

### صعوبة تحديد مجالات التأثير :

إن تحديد مجالات التأثير الإسلامي في الحضارة الإنسانية  
صعب وغير عملي تقريباً ، لأن هذا التأثير قد اختلط بجهاز  
الحضارة اختلاط الدم باللحم ، وعادت هذه الشعوب والأمم  
لا تشعر بهذه التأثيرات ولا يخطر ببالها في حين من الأحيان  
أنها عناصر دخيلة أجنبية ، فقد أصبحت جزءاً من أجزائها  
وتفكيرها ، ومدنيتها وحياتها ، وهنا أستعير ما سبق أن قلته  
في كتابي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وأنا أتحدث  
عن المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري •

### التأثير العالمي العام :

« صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام  
من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة  
الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية  
الجافة ترق وتخضع ، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه  
تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل في الأحشاء ، وبدأت  
قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول  
وتخلفها الموازين الجديدة •

وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والعبادة  
المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من

الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم ، كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي مدنيّتهم وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتتم عنه الحركات الإصلاحية التي التي ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين » (٢) .

### عشرة معطيات هامة ومنح أساسية :

ولكن إذا كان لابد من تحديد جوانب ومجالات في حياة الأمم والشعوب والحضارة ، ظهرت فيها التأثيرات الإسلامية في أجلى أشكالها ، نحددها — على سبيل الاختصار والاختيار — في عشرة من المعطيات الهامة والمنح الأساسية الغالية ، التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري وإصلاحه وإرشاده ونهضته وإزدهاره ، والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء ، وهو كما يلي :

- ١ — عقيدة التوحيد النقية الواضحة .
- ٢ — مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية .
- ٣ — إعلان كرامة الإنسان وسموه .
- ٤ — رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحفظها .

---

(٢) ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٣٧ ، الطبعة الثالثة عشرة سنة ١٩٨٢ م ، دار القلم ، الكويت .

- ٥ - محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان •
- ٦ - الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتناثرة والمسكرات المتحاربة •
- ٧ - إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وتقخير شأن العلم والحث عليه ، وتوجيهه إلى علم هادف نافع موصل إلى الله •
- ٨ - استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية ، والحث على النظر في الأنفس والآفاق •
- ٩ - حمل الأمة الإسلامية على قبول مسئولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق والاتجاهات وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسئولية القيام بالقسط والشهادة لله •
- ١٠ - الوحدة العقائدية الحضارية العالمية •

وتدخل تحت كل عنوان قصة طويلة ، واستعراض تفصيلي للحضارات والعصور الجاهلية التي سبقت البعثة المحمدية والإنسان الذي ولد بعد البعثة ، استعراضاً دقيقاً أميناً ، وكل عنوان من هذه العناوين موضوع كتاب مستقل قد يمتد على مآت من الصفحات •

ونتناول هذه المجالات التي ظهرت فيها تأثير الإسلام الجذري والثوري مجالا مجالا ، ونلقى بعض الأضواء على مدى تأثير الإسلام وتعاليمه الإنسانية العالمية •

## ١ — عقيدة التوحيد النقية الواضحة

نتناول منحة الإسلام الأولى ومأثرة محمد — ﷺ — الكبرى ، وهو أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية ، فهي عقيدة نائرة معجزة متدفقة بالقوة والحياة ، مقلبة للأوضاع ، مدمرة للآلهة الباطلة ، لم تقتل ولن تقتل الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة .

### الشرك والوثنية وأثرهما في حياة الإنسان :

هذا الإنسان الذي يحمل دعاوى فارغة ومزاعم جوفاء ، من الشعر والفلسفة والسياسة والاجتماع ، والذي اسعبد الأمم والبلاد مراراً كثيرة ، والذي حول الأحجار الصماء أزهاراً عبقة فيحاء ، وفجر الأنهار من بطون الجبال ، والذي ادعى الربوبية أحياناً ، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع ولا تعطى ولا تمنع ، « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (١) .

وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه ويخافها ويرجو منها الخير ، إنه لم يختر ساجداً للجبال والأنهار والأشجار

---

(١) سورة الحج — ٧٣ .

والحيوانات والأرواح والشياطين ، وسائر مظاهر الطبيعة  
فحسب ، بل سجد للحشرات والديدان أيضاً ، وقضى حياته  
كلها بين هواجس ووساوس ، وبين أخيلة وأوهام ، وأمان  
وأحلام ، كانت نتيجته الطبيعية الجبن والوهن ، والفوضى  
الفكرية والقلق النفسى وفقد الثقة وعدم الاستقرار •

وامتازت الهند — البرهمية بصفة خاصة — بكثرة  
المعبودات والإلهات ، وقد بلغت الوثنية أوجها فى القرن  
السادس المسيحى ، فبلغ عدد الآلهة فى هذا القرن إلى  
٣٣٠ مليون (٢) ، وقد أصبح كد شىء هائل وكل شىء نافع  
إلهاً يعبد •

### عقيدة التوحيد وأثرها فى الحياة :

أعلن القرآن والرسالة المحمدية أن هذا العالم ليس  
بلاملك ولا هو دولة مشتركة لعدد من الملوك ، بل له ملك واحد  
وهو خالقه وصانعه وحاكمه ومدبره ، له الخلق والأمر كله  
وله الحكم ، « ألا له الخلق والأمر » ولا يحدث فى هذا العالم  
شىء إلا بأمره وقدرته وإن العلة الحقيقية لوجوده هى  
إرادته وقدرته ، إن هذا الكون كله خاضع له فى  
كونه ووجوده ، ومنقاد له وطوع أمره « وله أسلم من فى

(٢) راجع « الهند القديمة » لمؤلفه آر ، سى ، دت  
Ancient India, Vol. III P. 276 (1891) & L.S.S.O. Malley; Po-  
pular Hindusim — The Religion of Masses, Cambridge  
(1935).



السموات والأرض » وعلى المخلوقات التي تملك إرادة واختياراً أن تخضع له « ألا الله الدين الخالص » •

وإن الأثر العقلي الأول الذي يترتب من هذه العقيدة على الإنسان هو أن العالم كله تابع لمركز ونظام واحد ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهراً ووحدية في القانون ، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسير كامل للحياة ، وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمة وبصيرة •

فأغنا — — — الإنسان ، بعقيدة صافية نقية سهلة مائغة ، حافزة للهيم ، باعثة للحياة ، فتخلص من كل خوف ووجل وصار لا يخاف أحداً إلا الله ، وعلم علم اليقين أنه وحده هو الضار والنافع ، والمعطى والمانع ، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر •

فتغير العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة والاكتشاف الجديد ، وصار مصوناً عن كل نوع من العبودية والرق ، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق ، وعن كل ما يشقت البال ويشوش الأفكار ، فقد شعر بوحدية في هذه الكثرة ، واعتبر نفسه أشرف خلق الله وسيد هذه الأرض وخليفة الله فيها ، يطيع ربه وخالقه ، وينفذ أوامره ، ويحقق بذلك هذا الشرف الإنساني العظيم والعظمة الإنسانية الخالدة ، التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد •

إنها البعثة المحمدية التي اتحفت الإنسانية بهذه التحفة الفادرة — عقيدة التوحيد — التي كانت مجهولة مغمورة ، مظلومة مغبونة ، أكثر من أى عقيدة فى العالم ، ثم ردد صداها العالم كله وتأثرت بها الفلسفات والدعوات العالمية كلها فى قليل أو كثير .

إن بعض الديانات الكبيرة التى نشأت على الشرك وتعدد الآلهة ، وامترجت به لحماً ودماً ، اضطرت فى الأخير إلى أن تعترف — ولو بصوت خافت وهمسة فى الآذان — بأن الله واحد لا شريك له ، وأرغمت على تأويل معتقداتها المشتركة تأويلاً فلسفياً ، يبرئها من تهمة الشرك والبدعة ، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد فى الإسلام ، وبدأ رجالها وسدنتها يستحيون من الاعتراف بالشرك ويخجلون من ذكره ، وأصبحت هذه الأنظمة المشتركة كلها « بمركب النقص » والشعور بالصغار والهوان ، (Inferiority Complex) فكانت هذه التحفة أعلى التحف التى سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته — ﷺ — .

وقد أجاد أستاذنا العلامة « السيد سليمان الندوى » عرض هذه الحقيقة العقدية النفسية ودورها فى تربية الإنسان وتوجيه المدنية ، يقول فى كتابه الجليل الطائر الصيت « سيرة النبى » .

« إن الأمم التى لا عهد لها بعقيدة التوحيد لم تكدر تعرف معنى الإنسانية وكانت تعد نفسها فى عبودية خاضعة

لكل مظهر من مظاهر القوة ، وإن عقيدة التوحيد التى جاء بها محمد رسول الله - ﷺ - هى العقيدة التى استطاعت أن تحرر الإنسان من المخاوف التى كانت تسيطر على شعوره فأصبح بفضل هذه العقيدة لا يخاف أحداً إلا الله .

وقد خضع له مسخراً ما كان يعبد من قبل ويحسبه مصدراً أو ممثلاً للقوة القاهرة الفعالة ، مثل الشمس والأرض والنهر والبحر .. وقد تلاشت لديه المهابة الملوكية والجلالة الحاكمة لبنى الإنسان ، فلم يبد آلهة بابل ومصر ، وآلهة الهند وإيران « والقائل : أنا ربكم الأعلى » إلا خدماً للإنسان ، رعاة لمصالحه ، حرساً لأملكه .

ولم تكن الآلهة تتصب هؤلاء الملوك وتخلعهم إنما كان الإنسان هو الذى يرفعهم ويضعهم .

إن المجتمع البشرى الذى كان يخضع لحكم الآلهة ، كان مجتمعاً ، فاسداً ، ممزقاً مفرقاً فى طبقات تحكمها التقاليد الجائرة ، جعلت من الإنسان من هو شريف ، ووضيع ، هذا ينتمى إلى طبقة عليا ، وذاك إلى درجة دنيا ، هذا خلقه « برميشور » ( كبير آلهة الهند ) من رأسه فأصبح شريفاً مخدوماً ، وذلك خلقه من قدمه فأصبح وضيعاً خادماً ، والآخر مخلوق من يد الإله الكبير فعليه أن يمثل الطبقة الوسطى من الناس .

وكان — طبيعياً — من جراء هذه العقيدة أن يكون المجتمع البشرى آنئذ مفرقا في طوائف وطبقات حسب الأنساب والسلالات ، يجهل أبسط معنى لمبدأ المساواة الإنسانية والسمو البشرى ، ونيل الحقوق بالتساوى ، وما كانت الدنيا آنذاك إلا حلبة للمصارعات ، لمفاخر الفرق والطبقات •

ولما جاء الإسلام بدد الظلمات وعرف الناس لأول مرة عقيدة التوحيد ، ومعنى الأخوة الإنسانية التي رأت التصدعات وأزالت المعايير المصطنعة ، وبهذه العقيدة أدرك الإنسان ما سلب منه حقه في المساواة •

والتاريخ خير شاهد ما لهذه العقيدة من نتائج إيجابية فعالة ومدى تأثيرها في عقلية الأمم والشعوب التي اعترفت — سواء رضيت أو كرهت — بفضل هذه العقيدة وإن كانت لا تزال تجهل جميع معانيها ونفوذها الواقعي في تغيير الأقدار والمعايير ، إنها — أى تلك الشعوب التي لا تؤمن بمبدأ التوحيد — تفقد حتى زمننا هذا المبدأ الصادق للمساواة الإنسانية فليس بكاف أنك لا ترى مظاهرها في مجتمعاتهم ونواديهم فحسب ، بل إنك ستفتقد مظهر المساواة حتى في معابدهم ، حيث يواجه روادها أسس إنزال الناس حسب منازلهم ( البرتوكول ) ولا شك أن المسلمين في خير ، فقد عرفوا هذا المبدأ منذ ثلاثة عشر قرناً ، بفضل عقيدتهم بوحدانية ربهم العلى القدير ، وقد تحرروا من المعايير المصطنعة والمستويات الموضوعية •

والناس عند الإسلام سواسية كأسنان المشط لا يفرقهم اللون أو الوطن ، ولا يميز بينهم القومية والوطنية ، وقفوا أمام ربهم وهم ساجدون ، أذلة خاضعون ، وإذا تعاملوا في حياتهم فإذا هم شرفاء متساوون ، لا تفاوت بينهم إلا بالعمل « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) .

### أثر عقيدة التوحيد الإسلامية في الهند :

يقول الباحث الهندي المعروف (K. M. Panikkar) وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ، ودياناته :

« من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقاً في هذا العهد ( الإسلامي ) ، إن فكرة عبادة الله في الهنادك مدينة للإسلام ، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى ، قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ودعوة كيرداس « (٤) . (٥) .

(٣) السيرة النبوية للعلامة السيد سليمان الندوى ، ج ٤ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ ( القطعة من تعريب الدكتور عبد الله عباس الندوى ) .

(٤) شاعر متصوف ينتقد المجتمع الهندي ويدعو إلى الإصلاح ، اختلف الناس في ديانته .

A. Survey of Indian History, P. 132.

(٥)

وكذلك الشأن مع الفرقة التي تسمى السيخ (Sikhs) والتي لعبت دوراً خطيراً في المجال السياسي والعسكري والاجتماعي في المجتمع الهندوسي العام ، فمما يثبت من تاريخ هذه الطائفة أن الغاية الرئيسة لنشوء هذا المذهب في الديانة الهندوكية إنما كانت تطهير العقائد الدينية ، وأن منشئ هذه الديانة « بابا نانك » كان قد تأثر بتعاليم الإسلام وكان قد تلقى دراسته في اللغة الفارسية والدين عن رجل مسلم معروف بالصلاح اسمه « سيد حسن » ، وكان موضع عنايته وعطفه، وقد ذكرت أسماء أخرى من شيوخه وأساتذته المسلمين ، يبلغ عددها إلى ستة أشخاص ، ويروى أنه زار الحرمين الشريفين ، وقضى أياماً في بغداد ، وكانت له صلة خاصة بالشيخ « فريد » من كبار مشايخ الطرق في بنجاب ، وكان «بابا نانك» يركز في دعوته وتعليمه على عقيدة التوحيد والمساواة البشرية ، واجتناب عبادة الأصنام والوثنية (٦)•

ويقول (Dr. Tarachand) في كتابه « أثر الإسلام على الثقافة الهندية » (Influence of Islam on Indian Culture) محيلاً إلى كتاب الديانة الهندية (Religion of India) الديانة الهندية لمؤلفه (Barith) . •

« مما يجب تكرار التنبية عليه : أن المدارس الدينية

---

(٦) لراجع للتفصيل : Macauliffe : The Sikh, Religion :  
Seva Ram Singh : Life of Curu Nanak.

والفلسفية في جنوب الهند كان كل كوحدة مقتبساً من النظم  
الفكرية القديمة، ولكن كانت من حيث المجموع أو الترجيحات  
الخاصة مرآة للأثر الإسلامي ، وتجعل من المعقول أنها  
تأثرت بالإسلام « (٧) » .

### أثر عقيدة التوحيد في العالم المسيحي :

يقول الأستاذ « أحمد أمين » :

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام،  
من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي أي في القرنين الثاني  
والثالث الهجريين ظهرت في سبتمانيا (Septimania) (٨)  
حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن ليس  
للقسس حق في ذلك وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في  
غفران ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قسيسون  
ورهبان وأحبار ، فطبيعي أن لا يكون فيه اعتراف » .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل  
الدينية (Iconoclast) ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع  
للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجري ، ظهر مذهب نصراني  
يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الإمبراطور

---

(٧) ص ١٠٧ .

(٨) سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب العربى  
لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .



الرومانى « ليو » الثالث. أمراً سنة ٧٢٦ م ، يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م يعد الإتيان بهذا وثنية ، وكذلك كان « قسطنطين » الخامس و « ليو » الرابع ، على حين كان البابا « جريجورى » الثانى والثالث « وجرمانىوس » بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة « إيرينى » من مؤيدى عبادة الصور .

وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون: إن « كلودىوس » (Claudius) أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨هـ وحول ٢١٣هـ) والذي كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ، ولد وربى فى الأندلس الإسلامية .

وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة ، وروى البخارى ومسلم عن « عائشة » رضى الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد سئرت سهوة لى بقرام (٩) فيه تماثيل ، فلما رآه هناك ، وتلون وجهه ، وقال يا عائشة! أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله وقالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين « والأحاديث فى هذا الباب مستفيضة .

(٩) السهوة : النافذة بين الدارين ، والقرام : الستر .

وكذلك وجدت طائفة من النصارى (١٠) شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوجدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام » (١١) .

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلى فى نزعات المصلحين والنائرين على النظام الأسقفى السائد ، أما دعوة « لوثر » الإصلاحية التى ظهرت فى القرن السادس عشر المسيحى ، فقد ظهرت فيها انعكاسات خفيفة لتعاليم الإسلام ودوره فى الإصلاح ، كما تظهر انعكاسات لضوء الإسلام فى مكان بعيد تخرق أشعته الحجب الكثيفة الحاجزة ، من خضوع عقلية القرون المتوسطة للمثل القديمة ، وضغط الكنيسة ، كما يقول الكاتب المسيحى الفاضل (J. Eass Mallinger) (١٢) ولشدة نفوذ بولس (Paul) (A. D. 65 — 10) على النصرانية ، وخضوعها لأفكاره وتفسيره للعقيدة النصرانية كما يقول « أرنست دى بنسن » (Ernest de Bunsen) (١٣) .

وتتطوى البروتستانتية التى تزعمها « لوثر » على أفكار تحريرية فى الأمور الدنيوية والدينية ، وكذلك فى إعطاء الفرد حرية التقدير ، والحكم على الأمور وفى التسامح الدينى ،

---

(10) Haine's Christianity & Islam in Spain, P. 116.

(١١) ضحى الإسلام ، ج ١ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(١٢) راجع دائرة معارف بريطانيا ، مقال ج بانس مولنجر عن « مارتن لوثر » .

(١٣) راجع كتاب :

Islam or True Christianity, Ernest Debunsen :

وهذا مضاد للتقليد ، وللسلطة الدينية ، والروح البروتستانتية  
هى فى مسئولية الفرد تجاه الله وحده وليس تجاه الكنيسة .

### لماذا أخفقت هذه الجهود ولم تات بالنتيجة المطلوبة ؟

ولابد هنا من تنبيه على حقيقة خالدة أثبتتها تاريخ  
الديانات وقررتها نفسية الأمم ، وهو أن الحركة الإصلاحية  
الثورية الجذرية فى ديانات أصيبت بتحريف أو انحراف  
جذرى — مهما بلغ القائلون بها والدعاة إلى هذه الحركة من  
الإخلاص والجهد — إذا لم تقم بانفصال واضح عن هذه  
الديانات المنحرفة أو المحرفة ، والتبرؤ منها ، وبقيت هذه  
الفرقة مندمجة فى مجتمعها الدينى الكبير ، الذى أنكرت على  
عقائده الرئيسية الأساسية ، وأخذت بمبدأ التسامح الذى  
لا مساغ له ، كان مصير هذه الفرق والدعوات الذوبان فى  
هذه الديانات أخيراً ، وذهبت كل المساعى والجهود التى قام  
بها زعماء هذه الحركات الإصلاحية والثورية أدراج الرياح ،  
وهذا شأن الحركات الثورية فى الديانة المسيحية وحركات  
الدعوة إلى التوحيد والمساواة البشرية التى نشأت فى الهند ،  
وأشرنا إليها .

ولذلك كان موقف الأنبياء السابقين وموقف الدين  
الإسلامى واضحاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض ، قوياً  
لا ضعف فيه ولا تردد ، قد تجلّى ذلك فى قول سيدنا إبراهيم

عليه السلام والمؤمنين معه للمشركين في عصرهم ،  
الذي نقله القرآن : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم  
والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون  
الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى  
تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما  
أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك  
المصير » (١٤) •

ولم يكن ذلك مقصوراً على عصر أو مجتمع ، بل وصى  
بذلك إبراهيم أتباعه وخلفه وراءه ، يقول القرآن :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ،  
إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه  
لعلهم يرجعون » (١٥) •

وبفضل ذلك بقى الإسلام ديناً واضحاً معيناً محافظاً  
على روحه وتعاليمه إلى هذه الساعة « ليهلك من هلك عن  
بينة ويحيى من حى عن بينة » •

---

(١٤) سورة المتحنة — ٤ .

(١٥) سورة الزخرف — ٢٦ — ٢٨ .

## ٢ - مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية

### إعلان تاريخي بليغ عن الأخوة الإنسانية :

ومأثرة رمول الإنسانية العظيمة ، ومنته الباقية السائرة  
في العالم ، هو تصور الوحدة الإنسانية •

كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات ، بعضها  
دون بعض ، وقوميات ضيقة ، وكان التفاوت بين هذه  
الطبقات تفاوتاً هائلاً ، كتفاوت بين الإنسان والحيوان ، وبين  
الحر والعبد ، وبين العابد والمعبود ، لم تكن هناك فكرة عن  
الوحدة والمساواة إطلاقاً ، فأعلن النبي ﷺ — بعد قرون  
طويلة من الصمت المطبق والظلام السائد ، ذلك الإعلان الثائر  
الدهش للعقول ، المقلب للأوضاع :

« أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم  
لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي  
على أعجمي فضل إلا بالتقوى » (١) •

وهذا الإعلان يتضمن إعلانين ، هما الدعاءتان اللتان  
يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام الإسلام في كل  
مكان وزمان ، هما وحدة الربوبية والوحدة البشرية •

---

(١) كنز العمال

« فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرة وهى الأساس ، لأن الرب واحد ، ومرة ثانية لأن الأب واحد ، « يا أيها الناس ! اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » (٢) ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير » (٣) .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس بنو آدم ، خلق من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى بالتقوى » (٤) .

لذلك كان الدين الإسلامى حقا مشاعا وثررة مشتركة لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات والبلاد والأوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار بنى لاوى من اليهود ، أو البراهمة من الهنود ، لا يتميز فيها شعب عن

(٢) سورة النساء — ١ .

(٣) سورة الحجرات — ١٣ .

(٤) رواه الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

شعب ، ولا نسل عن نسل ، وليس الاعتماد فيها على العرق والدم ، بل الاعتماد فيها على الحرص والشوق ، وحسن التلقى وزيادة التقدير والتفوق في الجهاد والاجتهاد .

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ — أنه قال : « لو كان العلم بالثريا لقتاوله أناس من أبناء فارس » .

وقد دان العرب في جميع عصورهم لكل من برز في العلوم الدينية وتفوق فيها وأقروا لهم بالإمامة والزعامة فيها ، وخلصوا عليهم النعوت والألقاب ما لم يخلصوها على كثير ممن برع في هذه العلوم من العرب ، فلقبوا الإمام « محمد بن إسماعيل ( ابن إبراهيم بن مغيرة بن بردزبه ) الجعفي البخاري » صاحب الجامع الصحيح ( م ٢٥٦ هـ ) بأمر المؤمنين في الحديث ، وقالوا عن كتابه : إنه أصح كتاب بعد كتاب الله .

ولقبوا الإمام « أبا المعالي عبد الملك الجويني النيسابوري » ( م ٤٦٨ هـ ) بإمام الحرمين ، ولقبوا الإمام « أبا حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي » ( م ٥٠٥ هـ ) بحجة الإسلام .

وقد كان الموالى وأبناء العجم هم زعماء العالم ومراجع المسلمين في جميع عواصم المملكة الإسلامية الواسعة في آخر

القرن الأول الهجرى ، قد انتهت إليهم رئاسة العلم والفتيا  
والفقه والحديث ، وهى قصة معروفة .

وجميع كتب الطبقات والسير والتراجم وتاريخ الحضارة  
الإسلامية متفقة على ذلك فى العصور الإسلامية الذهبية التى  
ساد فيها العرب ، حتى قال نابغة العرب العلامة «عبد الرحمن بن  
خلدون» المغربى ( م ٨٠٨ هـ ) : « من الغريب الواقع أن  
حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم  
الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان  
منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ،  
مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربى » ويقول : فكان  
صاحب صناعة النحو « سيبويه » و « الفارسى » من بعده  
و « الزجاج » من بعدهما : وكلهم عجم فى أنسابهم . . . .  
وكذا الحديث وعلماء أصول الفقه وحملة الكلام وأكثر  
المفسرين » (٥) .

إنها كلمات خالدة جرت على لسان النبى - ﷺ - فى  
حجة الوداع ، وحينما قام النبى - ﷺ - بهذا الإعلان  
التاريخى العظيم ، لم يكن العالم فى وضع طبيعى هادئ  
يسينغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة ويطبقها . إن هذا  
الإعلان لم يكن أقل من زلزال هائل عنيف ، إن هناك أشياء

---

(٥) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية المصرية ، ص ٢٠١  
ملخصا .

( م ٣ - الإسلام - أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية )



قد تتجملها بصورة تدريجية ، أو من وراء ستار ، مثل التيار الكهربائي فقد نلمسه إذا كان مغطى أو داخلا في باطن الأسلاك ، ولكننا اذا لمسناه عاريا أصابتنا صدمة عنيفة ، أو قضى علينا بتاتا .

إن هذه الأشواط البعيدة والمسافات الشاسعة من العلم والفهم ، والفكر الإنسانى التى قطعتها الإنسانية اليوم بفضل الدعوة الإسلامية وظهور المجتمع الإسلامى وبجهود الدعاة والمصلحين والمربين ، جعلت هذا الإعلان الهائل ، النائر الفائر ، المزلزل لأوكار الجاهلية ومعازل الشرك والوثنية والعنصرية ، حقيقة يومية عادية تتادى بها اليوم كل مؤسسة سياسية واجتماعية فى العالم ، ومنها ميثاق حقوق الإنسان (Human Rights Charter) الذى حملت لواءه الأمم المتحدة ، وتصريحات تقوم بها كل جمهورية وكل مؤسسة عن الحقوق الإنسانية والمساواة البشرية ، فلا يستغربها أحد .

### الوضع الاجتماعى قبل الإسلام وتقديس السلالات والأفراد :

وقد أتى على الإنسان حين من الدهر سادت فيه عقيدة أشرفية بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر ، وكانت بعض الأسر والسلالات تعزو نسبها إلى الشمس والقمر وإلى الله سبحانه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

إن القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى ، فقال :  
 « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، » (٦)  
 وكان فراعنة مصر يزعمون أنهم تجسيد لإله الشمس ، « رع »  
 (Ray) وهظهر له .

وأما في الهند فقد عرفت فيها أسرتان سميتا « سورج  
 بنسى » يعنى أبناء الشمس ، و « جندر بنسى » أبناء القمر ،  
 أما في إيران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنه يجرى في عروقهم  
 الدم الإلهى وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظرة تقديس  
 وتأليه ، وكان من ألقاب كسرى أبرويز ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م )  
 ووصفه « فى الآلهة إنسان غير فان ، وفى البشر إله ليس له  
 ثان ، علت كلمته وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضوئه  
 وينير الليالى المظلمة بنوره » (٧) .

وكذلك كانت القياصرة آلهة ، فكان يعد من تملك زمام  
 البلاد إلها ، وكان لقبهم (Augustus) يعنى المهيّب  
 الجليل (٨) .

أما الصينيون فكانوا يعتبرون الإمبراطور « ابن السماء ،  
 ويعتقدون أن السماء ذكر والأرض أنثى ، وباتصالهما خلق

---

(٦) سورة المائدة — ١٨ .  
 (٧) إيران فى عهد الساسانيين ص ٦٠٤ .  
 (٨) راجع العالم الرومانى (The Rohan World)  
 تأليف : Victor Chopart ص ٤١٨ .

هذا الكون ، وأن الإمبراطور « ختا » الأول ، هو بكر هذين الزوجين (٩) •

أما العرب فكانوا يعتبرون كل من سواهم العجم ، وكانت قبيلة قريش ترى نفسها أشرف قبائل العرب وتحافظ على امتيازها في الموسم ، فلا تشارك الناس في مواقفهم ومساكنهم ولم تكن تدخل عرفات مع الحجيج بل تبقى في الحرم ، وتقف بالمزدلفة ، وتقول : « نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته ، وتقول : نحن حمس » (١٠) •

وامتازت الهند من بين جاراتها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب ، والامتياز بين الإنسان والإنسان ، وكان نظاماً قاسياً لا هوادة فيه ولا مرونة ، مدعماً بالدين والعقيدة ، خاضعاً لمصلحة الآريين المحتلين والبراهمة المحتكرين للديانة والقداسة ، قائماً على أساس الحرف والصنائع وتوارثها ، والعنصرية والسلالية ، وكان ذلك تابعاً لقانون مدنى سياسى دينى ، وصنعه المشرعون الهنديون الذين كانت لهم صفة دينية ، وأصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة وهو يقسم سكان الهند في أربع طبقات :

١ — طبقة الكهنة ورجال الدين ، وهم « البراهمة » •

٢ — رجال الحرب والجندية ، وهم « شهترى » •

---

(٩) انظر تاريخ الصين بقلم جيمس كاركن •

(١٠) رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها •

٣ — رجال الفلاحة والتجار وهم « ويش » .

٤ — رجال الخدمة ، وهم « شودر » ، وهم أحط الطبقات ،

فقد خلقهم خالق الكون من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة

هذه الطبقات الثلاث وإيراحتها .

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركونهم فيها أحد ، والبرهمى رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز فرض جباية عليه ، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال ، أما « شودر » فليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزاً ، أو يجالسوا برهمياً ، أو يمسه بيدهم ، أو يتعلموا الكتب المقدسة (١١) .

وكان أهل الحرف مثل الحاكة والسماكين والجزارين والحبالين (١٢) ، والكناسين والمباشرين لتنظيف المدن ، لا يسمح لهم — وفق أحكام منوسمرتى — بالإقامة داخل أسوار المدينة ، فكانوا يقيمون في الخارج ويدخلون المدن بعد طلوع الشمس لممارسة أشغالهم ووظائفهم ، وكانوا

---

(١١) راجع للتفصيل القانون المدنى الاجتماعى الهندى ، المسمى بـ « منوشاستر » الأبواب ١ — ٢ — ٩ — ١٠ — ١١ ، أو كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عنوان : « نظام الطبقات الجائر » ص ٥٨ — ٦٠ الطبعة ١٣ دار القلم .  
(١٢) صانعى الحبال .

يخرجون منها قبل أن تغرب الشمس ، فلم يكن لهم حظ بسبب هذا التشريع في التمتع بخيرات الحياة المدنية وأناققتها ، وكانوا يعيشون عيشة بدوية منحلة خسيصة (١٣) .

**دور الإسلام في إقرار مبدأ المساواة البشرية ، وأثره العالمى :**

أما الإسلام فقد أعلن مبدأ المساواة البشرية فى لفظ صريح مفهوم ليست فوقه هراحة وليس فيه تحفظ ، وجعل التفاضل بالتقوى والفضائل المعنوية فقط ، فقال « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٤) » .

وقد اعترف كبار فضلاء الغرب وكبار المستشرقين والباحثين بعظم دور الإسلام فى إقرار مبدأ المساواة البشرية وتطبيقه عملياً فى المجتمع الذى يقوم على أساسه ، ويعمل فيه بتعاليمه ، يقول الكاتب الشهير (H.A.R. Gibb) :

فى كتابه « تجاه الإسلام » (Whither Islam ?) :

« لم يحرز مجتمع من المجتمعات البشرية نجاحاً مثل ما أحرزه الإسلام فى إقرار المساواة بين الأجيال المختلفة ، بصرف النظر عن الطبقات البشرية وتنوع فى الفرص ،

---

(١٣) راجع منوسمى ، وراجع للتفصيل لامتيازات الطبقات :

Manu and Yajñavalkya Smṛiti, P. 85.

(١٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

وإمكانيات للعمل ، لقد تجلت من أوضاع الجالية الإسلامية الكبيرة في إفريقيا والهند وإندونيسيا ، ومن الجالية الإسلامية الصغيرة في اليابان ، قدرة الإسلام على إذابة الاختلافات في الأجيال والتقاليد التي لا تزول على مر القرون وعلى مدار التاريخ ، فإذا كان لابد من إحلال عاطفة التعاون مكان الصراع والخصومة بين مجتمعي الشرق والغرب الكبيرين ، فلا بد في ذلك من الاستعانة بالإسلام والاعتماد عليه في تحقيق هذا المطلوب » (١٥) .

ويقول المؤرخ الفيلسوف (A. J. Toyanbee) في كتابه « الحضارة في الامتحان » (Civilization on Trial) :

« إن القضاء على الفوارق السلالية والعصبية الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره ، أما العصر الحالي الذي نعيش فيه فإن هذه الفضيلة هي كبرى حاجات هذا العصر ، إنه مما لا شك فيه أن الشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الانساني بخير ورحمة ، ولكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها ، أنها أخفقت في القضاء على العواطف السلالية والجنسية » (١٦) .

---

(15) H. A. R. Gibb 'Whither Islam, London, 1932, P. 379.

(16) A. J. Toyanbee : Civilization, on Trial (New York, 1948, P. 205).

ويقول « لارنس » Lawrence -e- Browne في كتابه  
(The Prospects of Islam).

« إن الأخوة التي أعلنها الإسلام ، كانت أمراً واقعاً وشيئاً طريفاً لا عهد للشعوب الشرقية به ، إننا نشك في أن مسيحي سوريا كانوا يعاملون مسيحي إيران • معاملة الإخوة للإخوة ، كما أن مسلمي الشام يعاملون إخوانهم في الدين من الإيرانيين ، ويعتبرونهم أعضاء أسرة واحدة » (١٧) •

ونختم هذا بشهادة لآنسة هندوكية من أبرز السيدات الفاضلات في شبه القارة الهندية ، وهي الأدبية الشاعرة في الإنجليزية (Sarojini Naida) التي كانت تسمى بلبل الهند ، وكانت الحاكمة أخيراً لكبرى الولايات الهندية وهي الولاية الشمالية (Uttar Pradesh) تقول في كتابها « محاضرات ومقالات » •

« إن الدين الإسلامي كان الدين الأول الذي دعا إلى الديمقراطية وعمل بمبادئها ، فلا يرتفع صوت الآذان من منارة مسجد إلا ويجتمع من يريد أن يعبد الله ، فيجتمعون في صف خمس مرات في اليوم ويركعون أمام الله على صوت التكبير ، وتتجلى المساواة الإسلامية في أروع أشكالها ، إنني شعرت مرة بعد مرة بأن الإسلام بقوة الوحدة العملية يخرط

---

(17) Lawrence-e-Browne : The Prospects of Islam, London, 1949) P. 12.

أفراداً مختلفين من بنى آدم فى سلك واحد من الأخوة ، إنك إذا قابلت مصرياً أو جزائرياً أو هندياً أو تركياً فى لندن فلا يهم فى نظر أحد أن وطن أحدهم مصر ووطن الآخر الهند » (١٨) .

## فى الهند :

وكان أعجب ما حمله المسلمون معهم حين دخلوا الهند — وهى أشد البلاد تمسكاً بالعنصرية والنظام الطبقي المؤبد ، كما قدمنا — هى المساواة الإنسانية التى لم يكن للهند عهد بها ، فلا نظام طبقات ، ولا منبوذ ، ولا نجس بالولادة ، ولا جاهل يحرم عليه التعليم ، ولا تقسيم أبدى للحرف والصناعات ، يعيشون معاً ، ويأكلون جميعاً ، ويتعلمون سواء ، ويختارون ما يشاؤون من الحرف والصناعات ، وقد كانت صدمة عنيفة للذهن الهندى والمجتمع الهندى ، ولكن لا شك أنها أفادت الهند كثيراً ولطفت من شدة النظام الطبقي السائد ، وكان باعثاً قوياً على رد الفعل ضد النظام الطبقي وحافزاً للدعاة إلى الإصلاح الاجتماعى ولنسخ اللبس المنبوذ .

يقول الدكتور « تاراجند » ، وهو يتحدث عن الصلة بين المجتمع والشعب فى العهد المغولى :

« نشأت فى هذا العهد عدة مدارس فكرية استخدمت

---

(18) Sarojini Naidu : Speeches & Writings, Madras, 1918  
P. 169.



اللغة الشعبية كأداة للتغيير والتفهيم في الدعوة إلى الأفكار الثورية ، وكانت تدور حول الطبقات السفلى ، وكانت تمثل طموح الجماهير المحرومة إلى التقدم ونيل حقوقها السليمة ، وكان أصحابها يركزون على كرامة الإنسان واحترام الإنسانية لأنهم كانوا يعتقدون أن كل فرد يستطيع أن يصل إلى أعلى مستوى يبلغه الإنسان وذلك بعمله الفردي ، وكانوا يرفضون طبقة الكهنة وزيارة المعابد الوثنية ، والتقاليد والأعراف الفاشية ، وكانت دعوتهم وهتافهم أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله ويعبده بطريق مباشر وقد بدأت هذه الحركة في القرن الخامس عشر المسيحي واستمرت إلى منتصف القرن السابع عشر المسيحي ، ثم اضمحلت على مر الزمان ، وكان قادتها ينتمون إلى مناطق هندية مختلفة ، ولكن الأثر الإسلامي بين واضح في تعليماتهم وعقائدهم » (١٩) .

وقد قرر هذه الحقيقة التاريخية « جواهر لال نهرو » رئيس وزراء الهند سابقاً إذ قال :

« إن دخول الغزاة الذين جاؤا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام ، له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فصح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن

(19)

Society and the State in the Mughal Period, Delhi  
1941, P. 91.

العالم الذى كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التى كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها ، أثرت فى أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير ، البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندى المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية « (٢٠) •

### ٣ - إعلان كرامة الإنسان وسموه

والمنة الثالثة العظيمة على النوع البشرى هي إعلان كرامة الإنسان وسموه، وشرف الإنسانية وعلو قدرها، لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمدية إلى حضيض الذل والهوان ، فلم يكن على وجه الأرض شيء أصغر منه وأحقر ، وكانت بعض الحيوانات المقدسة وبعض الأشجار المقدسة التي علقت بها أساطير ومعتقدات خاصة ، أكرم وأعز عند عبادها وأجدر بالصيانة والحفاظة عليها من الإنسان ، ولو كان ذلك على حساب قتل الأبرياء وسفك الدماء ، وكانت تقدم لها القرايين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير وتأنيب قلب ، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة في بلاد متقدمة راقية كالهند في القرن العشرين .

أعاد سيدنا محمد ﷺ - إلى الإنسانية كرامتها وشرفها ، ورد إليها اعتبارها وقيمتها ، وأعلن أن الإنسان أعز وجود في هذا الكون ، وأعلى جوهر في هذا العالم ، وليس هنا شيء أشرف وأكثرم وأجدر بالحب ، وأحق بالحفاظ عليه من هذا الإنسان ، إنه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه ، خلق له العالم وهو خلق الله وحده ، : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً (١) » وأنه أشرف خلق الله وفي

---

(١) سورة البقرة - ٢٩ .

مكان الرئاسة والصدارة » ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في  
البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن  
خلقنا تقضيلًا « (٢) •

وليس أدل على كرامة الإنسان والاعتراف بعظمته من  
قول الرسول — ﷺ — : « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق  
إلى الله من أحسن إلى عياله » (٣) •

وليس هنا أبلغ في الدلالة على سمو الإنسانية والتقرب  
إلى الله بخدمتها والعطف عليها ، من الحديث الذي رواه  
أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي — ﷺ — قال :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : ابن آدم ! مرضت  
فلم تعدنى ، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ ،  
قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت  
أنك لوعدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم ! استطعمتك فلم  
تطعمنى قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ، قال :  
أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت  
أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يا ابن آدم ! استسقينك فلم  
تسقينى قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ، قال :  
أما علمت أنه استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت  
أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى (٤) •

---

(٢) سورة الإسراء — ٧٠ .

(٣) رواه البيهقى .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه .

هل يتصور إعلان أوضح وأفصح بسمو الإنسانية وعلو مكانة الإنسان من هذا الإعلان ، الذي جاء في دين شعاره التوحيد ، وهل فاز الإنسان بهذه المكانة السامية والشرف العالى في أى ديانة وفلسفة في العالم القديم والحديث ؟ •

إنه — ﷺ — جعل الرحمة على بنى آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله ، فقال عليه السلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٥) •

ترى ما كان عليه وضع العالم وحالته الاجتماعية والسياسية قبل أن ينهض النبی — ﷺ — بهذه الدعوة ، دعوة الوحدة الإنسانية والكرامة الإنسانية ويجاهد في سبيلها أبلغ جهاد ؟ •

لقد كان ثمن شهوة فرد واحد وهوى شخص واحد قبل بعثته — ﷺ — أكبر وأغنى من أرواح الآلاف ومآت الآلاف من البشر ، ينهض ملك واحد وإمبراطور واحد ، فيكتسح البلاد ويستعبد العباد ، ويهلك الحرث والنسل ، ويأتى على الأخضر واليابس ، لإشباع أنانية ملكية أو طموح سياسى •

يزحف « الإسكندر المقدونى » الكبير (Alexander The Great) (٣٥٦ — ٣٢٤ ق م) ويفتح إيران وسوريا والبلاد الساحلية

(٥) رواه أبو داود .

ومصر ومعظم تركستان حتى بلغ الهند الشمالية ويدمر في طريقه حضارات ومدنيات عتيقة راقية ، وينهض « يوليوس قيصر » الرومى (Julius Ceasar) ( م ٤٤ ق م ) والغزاة الفاتحون والقادة العسكريون مثل « إينبال » القرطاجى (Hanibal) ( ٢٤٧ - ١٨٣ ق م ) فيقتنصون الفئات البشرية كما يقتنص الصياد النهم بالقنص حيوان الغابة من غير اكتراث •

واستمرت عملية الإبادة والعبث بكرامة الإنسان وحياته بعد ظهور المسيح عليه السلام ، وكان من هؤلاء الفاتكين بالبشرية والقساة الظالمين « نيرون » ( م ٦٨ م ) الذى فتك مجموعة كبيرة من مواطنيه من جعلتهم أمه وزوجه ، وهو الذى يعتبر مسئولاً عن الحريق الكبير الذى وقع فى روما ، وكانت العاصمة تشتعل ناراً ، وهو مشغول بالغناء والموسيقى (٦) •

أما القبائل الأوربية الوحشية من « القوط » الغربيين والشرقيين و « وندال » وغيرها التى نشطت فى القرن الخامس المسيحى ( قبل البعثة المحمدية بقرن ) والتى كانت تدمر العواصم الكبيرة العامرة وتعيث فى الأرض فساداً ، وتنتشر الذعر والاضطراب ، فعن البحر حدث ولا حرج (٧) •

(٦) راجع للتفصيل موسوعة تاريخ العالم  
(An encyclopedea of World History)

لويليام لينكر (William L. Langer) ١٩٦٤م •

(٧) أيضاً •

أما العرب فقد هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء بقدر ما خفت في عيونهم قيمة الحياة الانسانية وشرفها حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر ، فقد وقعت الحرب بين « بكر » و « تغلب » ابني « وائل » ، ومكثت أربعين سنة أريقَت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا لأن « كليياً » — رئيس معد — رمى ضرع ناقة « البسوس بنت منقذ » فاختلط دمها بلبنها ، وقتل جساس بن مرة كليياً ، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال « المهلهل » أخو كليب :

« قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ، دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن » (٨) .

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا أن داحساً فرس « قيس بن زهير » كان سابقاً في رهان بين قيس بن زهير و « حذيفة بن بدر » فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاتته الخيل ، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها وأسر ونزح للقبائل ، وقتل في ذلك ألوف من الناس (٩) .

وأما الغزوات النبوية التي قامت في عهد الرسول — ﷺ — والتي بلغ عددها سبعا وعشرين ، أو ثمانى وعشرين ، غزوة والبعوث والسرائيا التي بلغ عددها ستين ، فقد أريق

(٨) انظر أيام العرب .

(٩) انظر أيام العرب .

فيها أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات ، ولم يتجاوز القتلى فيها كلها ٩١٨ قتيلا من الطرفين ، وكانت حاقنة للدماء وعاصمة للنفوس البشرية ، محققة لأغراض كريمة كانت في صالح البشرية ، وكانت خاضعة لآداب خلقية ، وتعليمات رحيمة ، جعلتها أشبه بعملية التأديب منها بعملية غزو وحرب (١٠) .

والإسلام يغذى بالإيمان ، والذي من أهم تعاليمه الخلقية الشعور بكرامة الإنسان ورفعته ويقوى هذا الإحساس ، حتى يصبح المسلم رقيق الشعور مرهف الحس في ذلك ، فلا يرضى في حال من الأحوال أن ينزله منزلة البهائم ، فلا يرتاح قلب المسلم لأن يعامل بنى جنسه معاملة العجماوات والجمادات ولا يستعبدهم لتفوقه الشخصي والغلبة عليهم ، ولا يرى فارقا بينه وبين بنى جنسه فيذلهم ويهينهم ، وهنا قصة طريفة في هذه المساواة البشرية واحترام الإنسانية :

قال « أنس بن مالك » — رضى الله عنه — كنا عند « عمر بن الخطاب » — رضوان الله عليه — إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، قال : وما لك ؟ قال أجرى « عمرو بن العاص » بمصر الخيل ، فأقبلت فرسى ، فلما رآها الناس قام « محمد بن عمرو بن

---

(١٠) اقرأ وصايا النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وتعليماته عند توديع الجيوش في كتب الحديث والسيرة ، واقرأ للتفصيل كتاب « السيرة النبوية » للمؤلف ، عنوان : « نظرة على الغزوات » ، ص ٣٢٥ — ٣٢٧ .

( م ) — الإسلام — أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية )



العاص « فقال : فرسى ورب الكعبة ، فلما دنا منى عرفته ، فقلت فرسى ورب الكعبة ، فقام إلى يضربنى بالسوط، ويقول خذها وأنا ابن الأكرمين ، قال : فوالله ما زاد « عمر » على أن قال له : إجلس ثم كتب إلى « عمرو » : « إذا جاءك كتابى هذا فأقبل ومعك ابنك « محمد » قال : فدعا عمرو ابنه فقال أحدثت حدثا ، أجنيت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟ قال : فقدم على عمر ، قال أنس بن مالك : فوالله أنا عند عمر ، إذ نحن بعمرو وقد أقبل فى إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه ، فقال أين المصرى ؟ قال : ها أنا ذا ، قال : دونك الدرة ، فاضرب ابن الأكرمين ، فضربه حتى أثخنه ، ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ، فقال يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى، قال أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ، أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ثم التفت إلى المصرى فقال : انصرف راشداً ، فإذا رابك ريب فاكتب إلى (١١) .

## ٤ - رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها

### حقوقها وحفظها

نقدم أولاً الخلفيات التي لابد للشعور بعظم الدور الذى قام به الإسلام فى صالح المرأة ، من الاطلاع عليها ، وهنا مقتطفات من كتاب « المرأة فى القرآن » للأستاذ عباس محمود العقاد، فإنه يمتاز بالتقصى ودراسة واسعة للموضوع .

يقول المؤلف وهو يذكر مكانة المرأة فى الديانات والمجتمعات القديمة السالفة على الإسلام .

« شريعة « مانو » (١) فى الهند لم تكن تعرف للمرأة

---

(١) « مانو » الذى أشار اليه الأستاذ العقاد : هو « منو » الذى يعتبر القانون الاجتماعى المدنى العائلى فى الهنالك ، وهو شخصية يكتنفها الكثير من الغموض والخيال والتقديس ، ولا يمكن تحديد عصره ، ولا تعيين شخصيته ، وهو يتراءى فى بعض عبارات الكتب المقدسة عند الهنالك « وبدا » إلهاً فوق البشر ، ويبدو فى بعض عباراتها جداً للجيل البشرى وممثلاً أولاً لفاطر الكون ، وينطبق هذا الاسم والوصف على عدة شخصيات فى الهند القديمة .

أما « منواسمرتى » الذى هو دستور الهند القديمة الاجتماعى والعائلى ، فهو ينسب إلى « بهركو مهاراج » أحد كبار علماء القانون فى الهند القديمة ، والذى كان ينتمى فى عمله

حقاً مستقلاً عن حق أبيها ، أو زوجها أو ولدها في حالة وفاة الأب والزوج ، فإذا انقطع هؤلاء جميعاً وجب أن تنتمي إلى رجل من أقارب زوجها في النسب ، ولم تستقل بأمر نفسها في حالة من الأحوال ، وأشد من نكران حقها في معاملات المعيشة ، نكران حقها في الحياة المستقلة من حياة الزوج ، فإنها مقضى عليها بأن تموت يوم موت زوجها ، وأن تحرق معه على موقد واحد ، وقد دامت هذه العادة العتيقة من أبعاد عصور الحضارة البرهمية إلى القرن السابع عشر ، وبطلت بعد ذلك على كره من أصحاب الشعائر الدينية .

وشريعة حمورابي (٢) التي اشتهرت بها بابل كانت تحسبها في عداد الماشية المملوكة ، ويدل على غاية : مداها في تقدير مكانة الأنثى أنها كانت تقرض على من يقتل بنتاً لرجل آخر أن يسلمه بنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها ، وقد يضطر إلى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها .

وكانت المرأة عند اليونان الأقدمين مسلوكة الحرية والمكانة في كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية ، وكانت تحل

---

وتشريعه إلى « منو » وقد اعتبر « منواسمرتى » أقدم كتاب قانون في الهند القديمة ويذهب أكثر الباحثين إلى أنه تم تأليف هذا الكتاب في القرن الثالث قبل المسيح . مستفاد من كتابي الدكتور ككناناته بها ، والدكتور جيسوال من كبار علماء تاريخ القانون الهندي - الندوى .

(٢) أشهر ملوك الأسرة الحاكمة في العراق التي أسست حكومة قوية ، وحكمت قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة « الندوى » .

في المنازل الكبيرة محلا منفصلا عن الطريق ، قليل النوافذ ، محروس الأبواب ، واشتهرت أندية الغوانى في الحواضر اليونانية لإهمال الزوجات وأمهات البيوت ، وندرة السماح لهن بمصاحبة الرجال في الأندية والمحافل المهذبة ، وظلت مجالس الفلاسفة من جنس المرأة ، ولم تشتهر منهن امرأة نابهة ، إلى جانب الشهيرات من الغوانى أو من الجوارى الطليقات .

وقد كان أرسطو يعيب على أهل « اسبرطة » أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ، ويمنحونهن من حقوق الوراثة والبائنة وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن ، ويعزو سقوط « اسبرطة » واضمحلالها إلى هذه الحرية ، وهذا الإسراف في الحقوق .

ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين في الحكم على المرأة بالقصور ، حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الزوج أو الأبناء ، وشعارهم الذى تداولوه إبان حضارتهم أن قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع ، ومن ذلك قول « كاتو » المشهور (Nunguam Exuitur Servitus Mulie Brio) ولم تحرر المرأة الرومانية من هذه القيود إلا يوم أن تحرر منها الأرقاء على أثر التمرد ثورة بعد ثورة ، وعصياناً بعد عصيان ، فتعذر استرقاق المرأة كما تعذر استرقاق الجارية والغلام .

وبعد ما تحدث الأستاذ العقاد عن الحضارة المصرية

القديمة التى تمتعت المرأة فيها ببعض الحقوق والاعتبارات،  
قال :

« بيد أن الحضارة المصرية زالت وزالت شرائعها معها  
قبل عصر الإسلام ، وسرت فى الشرق الأوسط يومئذ غاشية  
من كراهة الحياة الدنيا بعد سقوط الدولة الرومانية بما  
انغمست فيه من ترف وفساد ، ومن ولع بالملذات والشهوات،  
فانتهى بهم رد الفعل إلى كراهة البقاء وكراهة الذرية ،  
وشاعت فى هذه الفترة عقيدة الزهد والإيمان بنجاسة الجسد  
ونجاسة المرأة ، وباءت المرأة بلعنة الخطيئة ، فكان الابتعاد  
منها حسنة ماثورة لمن لا تغلبه الضرورة . »

ومن بقايا هذه الغاشية فى القرون الوسطى أنها شغلت  
بعض اللاهوتيين إلى القرن الخامس للميلاد ، فبحثوا بحثاً  
جدياً فى جيلة المرأة ، وتساءلوا فى مجمع « ماكون » هل هى  
جثمان بحت ؟ ، أو هى جسد ذو روح يسيطر بها  
الخلاص والهلاك ؟ وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح  
الناجية ، ولا استثناء لإحدى بنات حواء من هذه الوصية ،  
غير السيدة العذراء أم المسيح عليه الرضوان .

وقد غطت هذه الغاشية فى العهد الرومانى على كل ما  
تخلف من حضارة مصر الأولى فى شأن المرأة ، وكان اشتداد  
الظلم الرومانى على المصريين سبباً لاشتداد الإقبال على

الرهبانية والإعراض عن الحياة ، وما زال كثير من النساك يحسبون الرهبانية اقتراباً من الله وابتعاداً من حبائل الشيطان ، وأولها النساء •

ومن المتواتر فى أقوال أناس من المؤرخين العربيين أن الإسلام ينقل شريعته من الشرائع التى تقدمته ، ولا سيما الشريعة الموسوية ، ولا يتضح بطلان هذه الدعوى من شىء كما يتضح من المقابلة بين مركز المرأة فى حقوقها الشرعية كما نصت عليها التوراة ، ومركز المرأة فى حقوقها الشرعية التى قررها الإسلام بأحكام القرآن •

فالمأثور عن الكتب المنسوبة إلى « موسى » — عليه السلام — — أن البنت تخرج من ميراث أبيها إذا كان له عقب من الذكور ، وما عدا هذا الحكم الصريح فهو من قبيل الهبة التى يختارها الأب فى حياته ، حيث لا يجب الميراث وجوب الحقوق الشرعية بعد الوفاة •

والحكم المنصوص عليه فى حق الميراث أن تحرم البنات ما لم ينقطع نسل الذكور ، وأن البنت التى يؤول إليها الميراث ، لا يجوز لها أن تتزوج من سبط آخر ، ولا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها ، وجاء هذا الحكم بالنص الصريح فى غير موضع من كتب التوراة •

وننتقل إلى البلاد التي بدأت فيها دعوة القرآن الكريم ، وهي بلاد الجزيرة العربية ، فلا تتوقع أن تكون للمرأة فيها قسمة من الإنصاف والكرامة غير هذه القسمة العامة في بلاد العالم على تباعد أرجائه وتنوع عاداته وشرائعه ، ولعلها كانت تسوء في بعض أنحاء الجزيرة فتتهبط في المساءة إلى حضيض لم تهبط إليه في سائر الأنحاء من الأمم كافة ، وترتقى فلا يكون قصارها من الارتقاء ، إلا أنها تكرم عند زوجها لأنها بنت ذلك الرئيس المهاب أو أم هذا الابن المحبوب ، فأما أنها تكرم وتسان لأنها من جنس النساء ، يعمها ما يعم بنات جنسها من الحقوق والمعاملة ، فذلك ما لم تدركه قط من منازل الإنصاف والكرامة .

وقد يحميها الأب والزوج كما يحميها الأخ والابن حماية الواجب المفروض عليه بكل ما في جواره أو كل ما في حوزته وحماه ، فيعاب على الرجل منهم أن يهان حرمة كما يعيبه أن يعتدى عليه في كل محمى أو ممنوع ، ومنه فرسه ودابته وبثره ومرعاه .

فإذا هانت المرأة فهي عار يأنف منه أهلوه أو حطام يورث مع المال والماشية ، ومن خوف العار يدفن الرجل بنته في طفولتها ويستكثر عليها النفقة التي لا يستكثرها على الجارية المملوكة والحيوان النافع ، وكل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونهم في طفولتها ، أنها حصة من الميراث تنقل من الأباء ، وتباع وترهن في قضاء المنافع وسداد

الديون ، ولا يحميها هذا المصير إلا أن تكون عزيزة قوم تغز  
بما يعز عندهم من ذمار وجوار « ١ هـ (٣) .

قارن كل ذلك بدور الإسلام الجديد الفريد في رد  
الاعتبار إلى المرأة ، وإحلالها مكانتها اللائقة في المجتمع  
الإنساني ، والإنصاف لها من القوانين الجائرة والأعراف  
الظالمة وأنانية الرجال ، ولنظرة عابرة في القرآن تكفى لمعرفة  
الفرق الهائل بين التقييم الجاهل للمرأة ، والتقييم القرآني  
الإسلامي لها ، والسلوك الفردي والتشريعات والقوانين  
الاجتماعية دائماً تنبثق من هذا التقييم وتقوم عليه .

إن الآيات التي وردت في القرآن عن نصف المجتمع  
الإنساني والجنس اللطيف تثير الثقة في المرأة بمكانتها في  
هذا المجتمع ومنزلتها عند الله والقدرة على الوصول إلى أعلى  
البر والتقوى وتكوين المجتمع الصالح ، وتقرن المرأة دائماً  
بالرجل في قبول الأعمال ، والنجاة والسعادة والفوز في  
الآخرة ، فيقول الله تعالى :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن  
فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » (٤) .

---

(٣) المرأة في القرآن ، للأستاذ عباس محمود العقاد ، طبع  
دار الهلال مصر ، ص ٥١ — ٥٧ .  
(٤) سورة النساء — ١٢٤ .



ويقول : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » (٥) •

وهذه الآيات لا تكتفى بمنح الفرص والوسائل للحياة الطيبة بل تكفلها للمرأة وتعدّها إياها ، و « الحياة الطيبة » كلمة جامعة عميقة المعانى تعطى معنى الحياة المثالية السعيدة الفاضلة ، وتشتمل على جميع شعب الكرامة والرضا وهدوء البال وما لا يأتى فى الحصر :

« ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٦) •

ويذكر الصفات الكريمة والأعمال الصالحة وشعب الدين الرئيسية ، فلا يكتفى بقرن الإناث مع الذكور ، والإشارة إلى أنه لا فرق فى الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث وكفى ، بل بالعكس من ذلك يفرد الصفات صفة صفة ، فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكور ، وإن طال البيان ، لأن قياس النساء فى جميع هذه الصفات على الذكور ، الرجال الأقوياء الأغنياء ، مما لم تتعوده أذهان الناس ، التى نشأت نحت ظلال الديانات والفلسفات والمجتمعات والآداب القديمة —

---

(٥) سورة آل عمران — ١٩٥ •

(٦) سورة النحل — ٩٧ •

سواءاً الدينية أو الأدبية — وفُرقت بين الرجال والنساء دائماً  
فاستثنت الإناث من مشاركة الرجال — فضلاً عن مزاحمتهم  
والسبق عليهم — في كثير من مجالات الفضيلة وعلو الهمة •

اقرأ معنى قول الله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات  
والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصادقين  
والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ،  
والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين  
لفروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد  
الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً » (٧) •

ولا يكتفى القرآن بأنواع العبادات والقربات ، بل  
يشرك الأخوات المسلمات مع الرجال الأقوياء العلماء ،  
أصحاب الإرادة القوية والفتوة وعلو الهمة والصبر والتعرض  
للمعارضة ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويجعل من  
المؤمنين والمؤمنات كتلة مترابطة متماسكة متعاونة على البر  
والتقوى فيقول :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون  
بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة  
ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز  
حكيم » (٨) •

---

(٧) سورة الأحزاب — ٣٥ •

(٨) سورة التوبة — ٧١ •

ويجعل المثل الكامل والشرط لبلوغ المنزلة العليا في الكرامة الإنسانية التقوى ، بصرف النظر عن الجنس والنسل والدم ، فيقول :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليهم خير » (٩) .

وهذا كله كافل بحفز الهمم وشحذها ، وإثارة الاعتزاز والثقة في نفوس الإناث والابتعاد عما يسمى في علم النفس الحديث بمركب النقص (Inferiority Complex) وبفضل ذلك وجد تاريخ — بعد مبعث الرسول — إلى العصر القريب — حافل بأمجاد السيدات المسلمات (١٠) المعلمات المربيات ، المجاهدات المرضات ، الأدبيات المؤلفات ، الحافظات للقرآن ، الراويات للحديث ، الزاهدات الربانيات ، المكرمات المبجلات في المجتمع ، يستفاد منهن ويتخذن قدوة ويضربن مثلا .

أما الحقوق والحظوظ التي منح الإسلام المرأة المسلمة من حق التملك والميراث ، وحرية البيع والشراء ، والمطالبة

---

(٩) سورة الحجرات — ١٣ .

(١٠) راجع الكتب الخاصة التي ألفت عن فضليات النساء مثل « أعلام النساء في عالمي العروبة والإسلام » لعمير رضا كحالة ( ١ — ٣ ) وسيرة أم المؤمنين السيدة عائشة للعلامة السيد سليمان الندوى .

بالتفريق إذا لزم ذلك ( وهو الذى يسمى بالخلع ) وحق  
فسخ الخطبة إن لم ترض بالزواج ، وحضور الأعياد والجمع  
والجماعات ، إلى غير ذلك فهى مما تحويه متون الكتب  
الفقهية ( ١١ ) .

وقد اعترف المنصفون من علماء الغرب والباحثون فى  
علم الاجتماع وتاريخ المدنيات بما تمتاز به تعاليم القرآن  
والشريعة الإسلامية ، من الاحترام الممتاز للمرأة والاعتراف  
بحقوقها سلوكا وتشريعا ، ونحن نكتفى هنا بشهادتين ، ونقدم  
شهادة لسيدة غربية فاضلة قامت فى الهند بحركة تربوية  
إصلاحية ، ورأست منظمة ثقافية كان مركزها فى جنوب الهند ،  
وساهمت فى حركة التحرير الهندية ، فلشهادة المرأة قيمتها  
ووجاهتها ، للحساسية الزائدة التى توجد عندها فى قضية  
المراة والدفاع عن جنسها .

تقول أينى بيسنت (Mrs. Annie Besant) :

« إن القانون الإسلامى فيما يتعلق بالمراة من أرقى  
القوانين التى ظهرت فى الدنيا وأكثرها عدلا ، إنه يسبق  
التشريعات الغربية فيما يتعلق بالعقار وحقوق الوراثة وقانون  
الطلاق بشروط بعيد ، إنه حارس لحقوق المراة ، إن كلمات  
« الاكتفاء بزوجة واحدة » و « تعدد الزوجات » قد سحرت

---

( ١١ ) يرجع إلى كتاب « المراة بين الفقه والقانون »  
للدكتور مصطفى السباعى عليه رحمة الله .

الناس وصرفت أنظارهم عن التفكير في ما تعيشه السيدات الغربيات من هوان وبؤس ، وقد تركها الأزواج الأولون المسئولون عن عصمتهم في الشوارع وقد قضوا منهن لبنانتهن وزهدوا فيهن سامة ومللا ، فلا يلقين بعد ذلك عوناً ولا رحمة » (١٢) .

ويقول الأستاذ N. L. Coulsen : « إنه مما لا شك فيه أن التشريعات القرآنية فيما يختص بتحديد مركز النساء خصوصاً المتزوجات منهن ، من أمثل القوانين وأعدلها ، إن قوانين النكاح والطلاق في عدد كبير منها تهدف — بصفة عامة — إلى التحسين في مركز النساء في المجتمع والنقدّم بهن ، وقد قامت على تغييرات ثورية في قوانين العرب التي كانت تسود قبل الإسلام ، إن المرأة منحت شخصية قانونية مستقلة لم تكن تملكها في السابق ، وإن أكبر تغير أحدثه القرآن في أحكام الطلاق هو سن قانون العدة للمطلقة » (١٣) .

وكانت هذه النظرة الجديدة في المرأة واعتبارها ومعاملتها في ضوء هذه المبادئ والآيات القرآنية والتعاليم النبوية (١٤) ، ولادة جديدة للجنس النسوي في العالم البشرى ، إذ لم يكن

(١٢)

The Life and Teaching of Mohammad Madras, 1932,

(١٣)

P. 3, Islamic Surveys : The History of Islamic Law (N.L.

Coulsen) Edimburg, 1971, P. 14.

(١٤) يرجع في ذلك إلى كتب الحديث ، أبواب الفكاح والعشرة والأخلاق .

بينها وبين حيوان داجن ، أو آلة صماء ، أو مؤودة أو رهينة ،  
أو صورة جميلة ودمية في القصر ، فرق كبير في العالم القديم  
كما وصفناه سابقاً ، فكانت مفاجأة مباركة في عالم الحضارة  
والأخلاق والحياة المنزلية والرابطة الزوجية ، تجاوزت لها  
وتأثرت بها في قليل وكثير المجتمعات والبلاد الكثيرة ، لا سيما  
البلاد التي دخل فيها الإسلام غازياً وفتحاً ، أو حاكماً منظماً  
للأمور ، أو داعياً مصلحاً ومثالاً عملياً .

إن عظمة هذه الهدية في بلاد كانت السيدات يحرقن  
أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن ولا يرين ولا يرى المجتمع  
لهن حقاً في الحياة بعد الأزواج ، واضحة لا تحتاج إلى تعليق .

قام الملوك ورجال الحكم المسلمون بدورهم في إصلاح  
الطقوس والعادات المتبعة في الهند وخاصة إصلاح تقليد ما  
يسمى « ستي » وهو إحراق الأرملة نفسها أثناء علمية إحراق  
جثمان زوجها الميت ، وذلك بدون أن يلحقوا بالمعتقدات  
الدينية والطقوس الهندية أى إساءة ، أو انتهاك حرمة ، يقول  
الرحالة الشهير الدكتور برنير (Bernier) الطبيب الفرنسي  
الذي زار الهند في عهد « شاهجهان » :

« لقد هبط عدد حوادث « ستي » نسبياً لأن المسلمين  
الذين يحكمون هذه البلاد ، يبذلون جهدهم للقضاء على هذا  
التقليد الوحشى ، ولو أنهم لم يسنوا أى قانون لمنع هذه  
الحادثة من الوقوع ، لأنهم لا يهدفون في نظام حكمهم إلى

التدخل في شئون الهنادك الدينية ، بل إنهم يسمحون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسهم ، ويوفرون لهم كل حرية ، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد « ستي » بطريق غير مباشر ، فلا تستطيع أى امرأة أن تقدم نفسها لـ « ستي » إلا بإذن من حاكم الولاية ، أما الحاكم فإنه لا يسمح لها به إلا إذا تأكد أنها لن تمتنع عن عزمها بأى حال من الأحوال ، ويحاول حاكم الولاية إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها ، وينفرها ويوعدها ويمنيها كذلك ، وعند ما تخفق هذه المحاولات ولا تثمر عملية الإقناع والوعيد ، يرسلها إلى حرمه ، لكى تنضم إلى عقيلات الحرم ، فتقلع عن إرادتها بإقناعهن ، ولكن رغم جميع هذه التدابير لا تزال حوادث « ستي » تحدث بكثرة ، وخاصة في مناطق الراجوات ( الأمراء ) والأماكن الخاضعة لنفوذهم ، حيث لا يحكم المسلمون « (١٥) » .

---

(١٥) رحلة الدكتور برنير ، ج/٢ ، ص ١٧٢ .

٥ - محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء

والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان

المأثرة الخامسة أن أكثر أفراد النوع الإنساني كانوا مصابين باليأس من رحمة الله ، وبسوء الظن بالفطرة الإنسانية ، وكان في إيجاد هذا الجو الخاص والحالة العقلية الخاصة ، دور كبير لبعض الديانات الشرقية القديمة ، والمسيحية المحرفة في أوروبا وفي الشرق الأوسط .

دانت الديانات القديمة في الهند بعقيدة التناسخ وفلسفته التي لا مجال عندها في إرادة الإنسان وتصرفه مطلقاً ، وأن كل إنسان مضطر لا محالة لنيل عقوبة ما ، لما قدمت يده في حياته الأولى ، وذلك بالظهور في شكل سبع مفترس ، أو دابة سائمة ، أو حيوان خسيس ، أو إنسان شقى معذب .

بينما نادى المسيحية بأن الإنسان عاص ومذنب بالولادة والفطرة ، والمسيح صار كفارة وفداء له عن هذه الذنوب ، فأنشأت هذه العقيدة بطبيعة الحال في نفوس الملايين

( م ٥ - الإسلام - أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية



العالم المتمدن المعمور الذين اعتقوا المسيحية ، سوء ظن  
بنفوسهم ويأساً من مستقبلهم ومن الرحمة الإلهية •

هنالك أعلن النبي — ﷺ — بكل قوة وصراحة أن فطرة  
الإنسان هي كاللوح الصافي ، الذي لم يكتب عليه بعد ،  
ويمكن أن ينقش فيه أروع نقش ، ويحرر فيه أجمل تحرير ،  
وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه ويستحق الثواب والعقاب  
والجنة والنار بعمله ، وهو غير مسئول عن عمل غيره ، فقد  
ذكر القرآن في مواضع كثيرة أن الإنسان مسئول عن عمله  
فحسب ، وأنه مثاب ومشكور على سعيه •

« ألا تتر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما  
سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (١) •

هذا الإعلان أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته  
ومواهبه الطبيعية وانطلق إلى الأمام بعزم قوى وحماس زائد  
وعاطفة جياشة ، ليصنع مصيره ومصير الإنسانية ، ويجرب  
حظه وقدرته في تلك الإمكانيات الهائلة ، والفرص الغالية •

إن محمداً — ﷺ — قرر أن المعاصي والذنوب ، والأخطاء  
والزلات ، فترة عابرة زائلة في حياة الإنسان ، يقع فيها  
الإنسان بجهله وغروره وقصر نظره حيناً ، وبإغواء الشيطان

---

(١) سورة النجم — ٣٨ — ٤٠ •

وإغراء النفس بعض الأحيان ، وأن الصلاح والصلاحية والاعتراف بالذنب والندامة أصل من أصول فطرته وجوهر إنسانيته ، وأن الابتغال إلى الله والتضرع إليه والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب ، دليل على شرف الإنسان وأصاله معدنه وهو ميراث آدم عليه السلام .

إن محمداً — ﷺ — فتح أمام المسلمين الخاطئين الغارقين في حمأة المعصية والرذيلة إلى آذانهم ، باباً للتوبة ، ودعا إليها الناس دعوة عامة وشرح فضل التوبة شرحاً وافياً ، وأفاح فيه إفاضة نستطيع بها القول بأنه أحيا هذا الركن الخاص العظيم من الدين ، ولذلك سمي بـ « نبي التوبة » من بين أسمائه الجميلة الأخرى .

إنه ما دعا إلى التوبة كوسيلة اضطرارية يتدارك بها الإنسانية ما فاتته فحسب ، بل إنه رفع من شأنها حتى صارت من أفضل العبادات والقربات عند الله وصارت طريقاً سهلاً للوصول في أقرب وقت إلى أقصى درجات القرب والولاية ، يغبط عليها النساك والزهاد والأبرياء والأطهار من عباد الله .

إن القرآن شرح فضل التوبة وسعتها ونقاء الإنسان من أكبر ذنب وأعظم معصية يتصورها الإنسان ، وذلك بأسلوب جميل يستهوى القلوب ، ودعا العصاة والمذنبين وصرعى النفس والشياطين ، إلى اللجوء إلى الله سبحانه والفرار إليه

والتقيوء بظلال رحمته والتراعى فى أحضان رأفته وعطفه ،  
وصور بحار رحمته الزاهرة الواسعة الأرجاء ، المحيطة  
بالأنفس والآفاق ، تصوراً رائعاً جميلاً ، شائقاً مثيراً ، يبدو  
منه أن الله سبحانه وتعالى ليس حليماً رحيماً وجواداً كريماً  
فحسب ، بل إنه — إذا صح هذا التعبير — يحب التوابين  
ويشتاق إليهم ويشكر سعيهم البليغ ويقدره كل التقدير •

اقرأ الآية التالية ، وتذوق أسلوب هذا اللطف والعطف ،  
وجو الود الذى يغشى هذه الآيات :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من  
رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور  
الرحيم » (٢) •

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد فى الآية التالية حيث ذكر  
الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين فاستهل هذه  
القائمة المشرقة النورانية بالتائبين ، إنها آية من سورة التوبة •

« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون  
الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون  
لحدود الله وبشر المؤمنين » (٣) •

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه وإظهار

---

(٢) سورة الزمر — ٥٣ •

(٣) سورة التوبة — ١١٢ •

الثقة به ، تجلى واضحاً حين أعلن القرآن قبول توبة ثلاثة من أصحاب النبي - ﷺ - الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر صحيح مقبول ، وبقوا في المدينة ، فبدأ القرآن بذكر النبي - ﷺ - والمهاجرين والأنصار الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة ، ثم ثنى بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، حتى لا يشعر هؤلاء المخلفون بإفرادهم بالتوبة ، ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان ، وما يسمى في علم النفس بمركب النقص ، ويتضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعية في الصف الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلا داعي للاستحياء ولا مقام للعار .

هل هناك مثال أروع وأجمل ، وأدق وأعمق ، وأحلى وأزهى ، لقبول التوبة وتكريم التائب ومسح غاشية الكآبة عنه بلطف وود وحب وحنو في تاريخ الأديان والأخلاق والتربية والإصلاح من هذا المثال ؟

إقرأ معي الآيات التالية :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » (٤) .

(٤) سورة التوبة — ١١٧ — ١١٨ .

ثم أعلن أيضاً كمبدأ عام أن رحمة الله تسع كل شيء ،  
 وتسبق غضبه وجلاله ، ويقول الله تعالى : « ورحمتي وسعت  
 كل شيء » (٥) ، وجاء في حديث قدسي : « إن رحمتي سبقت  
 غضبي » (٦) ، إنه جعل اليأس مرادفاً للكفر والجهل  
 والضلال ، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام : « إنه  
 لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (٧) ، وذكر في  
 موضع آخر قول إبراهيم عليه السلام فقال : « ومن يقنط  
 من رحمة ربه إلا الضالون » (٨) .

وهكذا أسعف النبي ﷺ — بهذه الدعوة المفتوحة  
 العامة إلى التوبة وبيان فضائلها وسعتها وشمولها ، الإنسانية  
 المذعورة الخائفة التي كانت تنئن تحت وطأة اليأس والقنوط  
 وترتعد فرائصها بإنذارات العقاب والعذاب ومظاهر الغضب  
 والجلال ، وقد كان في ذلك لعلماء اليهود وشرح الكتب المقدسة  
 ورهبان المسيحية الغلاة المتطرفين أكبر نصيب ، ومنحها فرصة  
 جديدة جميلة من الحياة ونفخ في قلبها الضعيف المتوانى  
 وجسدها الهامد البارد روحاً جديدة وحرارة جديدة ، وهياً  
 لجروحها بلسماً ورفعها عن حضيض التراب إلى أوج العزة  
 والسيادة ، والثقة والاعتزاز بالنفس والاعتماد على الله .

- 
- (٥) سورة الأعراف — ١٥٦ .  
 (٦) رواه مسلم .  
 (٧) سورة يوسف — ٨٧ .  
 (٨) سورة الحجر — ٥٦ .

## ٦ - الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف

### المتافرة والمسكرات المتحاربة

لقد وزعت الديانات القديمة ، خاصة المسيحية ، الحياة الإنسانية في قسمين ، قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين : معسكر رجال الدين ورجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير ووقف بينهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين .

وكان كل واحد يعتقد أن هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه فلا يمكن — على حد قولهم — أن يركب في سفينتين في وقت واحد ، وإنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة ، وإعراض عن فاطر السماوات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير رهبانية وقطع صلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ،

وكل فكرة دينية لا تسمح بالاستمتاع المباح ، والنهضة والعزة والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشرى فى الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة فى الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية ، آثر الدنيا على الدين ورضى بها — كحاجة اجتماعية وواقع حسى — واطمأن إليها ، وعكف على تحسين هذه الحياة والحصول على لذاتها ولم يبق له أمل فى الرقى الدينى والتقدم الروحى .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس التناقض الذى حسبوه بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذى كان يتزعم الحكم الدينى ، على الكنيسة التى كانت تمثل الدين ، وتجرد عن سائر قيوده ، فنارت الحكومات — بطبيعة المنطق — كفيل هائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه .

هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا ، وذلك العداء المشئوم بين « رجال الدين » و « رجال الدنيا » فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللا دينية ، وكانت فريسته الغرب أولا والأمم التى دانت له فى الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايته ثانيا .

وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون

الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، الذين لم يدخروا وسعاً في إضلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة ، (١) وقدموا صورة وحشية كالحية مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في نهاية الشوط إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى — في أوسع معناها — إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي النقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الدينى ، أو فقد الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة (٢) .

ومن أعظم هدايا البعثة المحمدية ومنتها العظيمة نداؤها الذى دوت به الآفاق : أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذى ينشده المرء والذى عبر عنه بلفظ بسيط ولكنه واسع عميق « النية » ، فقال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » (٣) .

وإن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله وبدافع الإخلاص وامتنال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى

---

(١) اقرأ تاريخ أخلاق أوربا ، ج/٢ ، لمؤلفه ليكى Lecky

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم »

لدرابر الأمريكى .

Conflict between Religion & Science by John William Draper

(٣) الجامع الصحيح للبخارى .



أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالاً وحكماً وإدارة ، أو تمتعاً بطيبات الأرض وتحقيقاً لمطالب النفس وسعيّاً لطلب الرزق والوظيفة ، واستعمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة والحياة العائلية والزوجية •

وكل عبادة وخدمة دينية — بالعكس من ذلك — تعتبر دنياً إذا تجردت عن طلب رضا الله سبحانه والخضوع لأوامره ونواهيه وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة أو هجرة وجهاداً ، أو ذكراً وتسبيحاً ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعى ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالا وتكون بينه وبين الله حجاباً •

وهذه قصة النصرانية فى القرون الوسطى ، فقد كانت الكنيسة — وهى ممثلة الدين — والحكومة على طرفى نقيض ، وقد قام بينهما صراع عنيف انتهى إلى فصل الدين عن السياسة ، وكانت نتيجته ما يعرفها الجميع ، ولا يزال العالم يكتوى بنارها ويتعثر فى طريقها •

وقد أجاد الدكتور « محمد إقبال » تصوير هذه الحقيقة التاريخية ، إذ قال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها — بالطبع — القيادة والسيادة والحكم والإدارة ، فقد كان

هناك عدااء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء واستيلاء » .

« وخلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه ، كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفى الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرّون على شىء ، فلما انفصل الدين عن الدولة جاءت الشهوة ، وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شئوم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر الحضارة وفساد ذوقها » .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذى كان بشيراً ونذيراً فى وقت واحد ، يتجلى فى بشارته الإنذار ، وفى إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعباد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد » (٤) .

إن المأثرة الخالدة من مآثر سيدنا محمد — ﷺ — أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا فجعل هذين المتتافرين المتباعدين الذين عاشا فى خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان فى إلف وود ، ويتعايشان فى سلام ووئام ، إنه — ﷺ — رسول الوحدة ، بشير ونذير فى الوقت

---

(٤) روائع إقبال ، ص/٢٢٨ ( الطبعة الرابعة ، مطبعة العلماء لکنؤ ) .

ذاته ، إنه أخذ النوع البشرى من المعسكرين المتحاربين ، إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية ، وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : « ربنا آتتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار » (٥) .

إنه أعلن بالآية القرآنية : « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » (٦) أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة مضادة ، بل هى وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب ، ويقودها الإيمان بالله والإسلام لأوامره ، وهى تشمل شعب الحياة كلها ، وميادين الكفاح كلها ، وأصناف العمل كلها ، إذا تحقق الإخلاص وصحت النية وأريد به وجه الله وكانت على المنهج الصحيح الذى جاء به الأنبياء ، فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والانسجام بالكمال والتمام وأنه البشير والنذير فى نفس الوقت .

إنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا ، فجعل الحياة كلها عبادة ، وجعل الأرض كلها مسجداً ، وأخذ بيد الإنسان من معسكرات متحاربة متصارعة ، إلى جبهة واحدة واسعة ، من العمل الصالح ، وخدمة الإنسانية النافعة ، وابتغاء مرضات الله ، فترى هناك ملوكاً فى أطمار الفقراء ، وزهاداً فى زى الملوك ، والأمراء ، جبال حلم وينابيع علم ، وعباد ليل وأحلاس خيل ، من غير تناقض أو صعوبة أو اختلال أو تعسف .

---

(٥) سورة البقرة — ٢٠١ .

(٦) سورة الأنعام — ٦٣ .

## ٧ - إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين

والعلم وربط أحدهما بالآخر

وتفخيم شأن العلم والحث عليه

ومن مآثر سيدنا محمد - ﷺ - الخالدة ، ومن خصائص بعثته ودعوته ، أنه - ﷺ - أنشأ الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم وربط مصير أحدهما بالآخر ، وفخم شأن العلم وحث عليه حثاً لا مزيد عليه ، فكانت نتيجته الطبيعية وجود حركة علمية وتأليفية لا يوجد مثيلها في تاريخ الأدوار والمدنيات التي قامت على أساس الدين والرسالات السماوية .

وأكبر دليل على ذلك أن أول وحى نزل على سيدنا محمد - ﷺ - ، من فيه فاطر الكون على النوع البشرى خاص بالعلم وذكر فيه وسيلته الكبرى التي ارتبط بها تاريخ العلم ومسيرته ، وانبثقت منها حركة التأليف والتعليم ونقل العلم من فرد إلى فرد ، ومن أمة إلى أمة ، ومن عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل ، ويرجع إليه فضل ذبوعه في العالم ، وانتشاره على أوسع نطاق عرف عن أى فضيلة أو حاجة من الحاجات البشرية المعنوية ، وقامت عليه دنيا المدارس والجامعات ، ودور العلم والمكتبات .

وكانت كل القرائن التاريخية والعقلية - إذا كان الأمر

بالقرائن والقياسات البشرية — تستبعد أن يذكر في سياق هذا الوحي الأول « القلم » فإن هذا الوحي ينزل على أمي في أمة أمية وفي بلاد متخلفة ، لم يكن شيء أكثر ندرة وغرابة فيها من هذه القطعة الخشبية التي تسمى « القلم » وقد أصبح لقب العرب الشائع السائر « أميين » \*

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (١) \*

وحكى القرآن قول اليهود وكانوا مجاورين للعرب في المدينة عارفين بهم بحكم الجوار والمعايشة : « ليس علينا في الأميين سبيل » (٢) ، وقد امتاز في هذه الأمة الرسول — المنزل عليه هذا الوحي — بالأمية الكاملة ، يقول الله تعالى :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » (٣) \*

ويقول : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتطلون » (٤) \*

ينزل هذا الوحي الأول على النبي الأمي بغار حراء وهو

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٧٥ .

(٣) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

اتصال الأرض بالسماء ، وبالأولى اتصال السماء بالأرض ،  
بعد فترة طالت وامتدت ستة قرون (٥) ، فلا يفتتح الأمر  
بالعبادة أو بمعرفة الله تعالى وطاعته أو الدعوة إلى الله ، من  
الأمر الإيجابية ، أو نبذ الأوثان والأصنام أو نعى على الجاهلية  
وعاداتها وأعرافها ، من الأمور السلبية ، وكان ذلك في محله  
ولكنه يفتتح بكلمة « اقرأ » .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ،  
اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم  
يعلم » (٦) ، فكان حدثاً عظيماً من الأحداث التاريخية ،  
يفتح آفاقاً جديدة واسعة من تفكير الإنسان وتأمل المفكرين  
والمؤرخين وهى إشارة بليغة واضحة إلى أن هذا النبي  
الأمى — ﷺ — سيفتح دوراً جديداً فى تاريخ الإنسانية  
وفى تاريخ الديانات والرسالات السماوية ، يتسم بالقراءة —  
فى أوسع معانيها وأعماقها — ويتسم بقيام دولة العلم وبدء  
عهده الزاهر ، وباقتران الدين بالعلم ، يترافقان ويتعاونان فى  
الصياغة الإنسانية الجديدة .

ولكن سيكون انطلاق فن القراءة والعلم فى أحضان هذه  
النبوة باسم الرب الذى خلق هذا الكون وخلق الإنسان ،  
فيكون مصطبغاً بالإيمان وبالله ومعرفته الصحيحة يشق

---

(٥) وهى المدة التى مضت على نبوة سيدنا عيسى وعلى نبينا  
عليه الصلاة والسلام .  
(٦) سورة الطلق الآية ١ ، ٥ .

طريقه إلى الأمام في ضوئه وتحت هدايته ، فقال : « اقرأ  
باسم ربك الذي خلق » •

عارفاً بحقيقة الإنسان وخلقته فلا يعدو طوره ولا يغتر  
بفتوحه في مجال العلم والعقل والصناعة وأسباب تسخير  
الكون ، فقال : « خلق الإنسان من علق » •

ثم شرف قدر القلم ونوه بقيمته وغناؤه ودوره الكبير  
في عالم العلم والقراءة والتعليم والتربية ، وهو الذي لم يكن  
العثور عليه سهلاً في مكة والجزيرة العربية ، فكان خاصاً بعدد  
محدود جداً (٧) ، لذلك اشتهر القارئ المتعلم في الجزيرة  
العربية بكلمة « الكاتب » فقال : « الذي علم بالقلم » •

ثم أشير إلى صلاحية الإنسان للعلم الحديث الأحدث  
من الحقائق الدينية والكونية والعلوم والصنائع ، والاكتشافات  
والاختراعات ، وتوسيع آفاق العلم ، وأن مصدر كل ذلك  
هو التعليم الإلهي وتهيئة الإنسان للعلم المجهول واكتشاف  
المفقود فقال : « علم الإنسان ما لم يعلم » •

---

(٧) كان من يعرف القراءة والكتابة من قريش ١٧ شخصاً  
فقط ، كما جاء في كتاب « العقد الفريد » لمؤلفه ابن عبد ربه  
٢٤٢/٤ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٤٥٧ وذهب بعض الباحثين  
إلى أن عددهم كان أكثر من هذا ولكنه محدود معدود على كل حال .

هذا أول الوحي النازل على محمد ﷺ — وفاتحته ،  
والبداية والعنوان لهما أثر كبير على جميع المراحل التي  
تلى ، وعلى تعيين الطبيعة التي تسيطر على علم أو دعوة أو  
مدرسة ، فقد بقى هذا الدين — ولا يزال — مقترباً بالعلم  
مترافقاً له ، مسائراً لرغبة النوع الإنساني في التعلم ،  
والقدرة على حل القضايا الجديدة التي تعرض للأجيال  
البشرية والعقل الإنساني والمدنية الصالحة ، غير متجهم  
لعلم وغير هيب لعمل العقل .

وهناك ديانات ترى حياتها في موت العلم وترى إزدهارها  
وانتصارها في انهزام العلم ، تمثلها حكاية تقول : إن بعوضة  
شكت إلى سيدنا سليمان الريح الهوجاء ، قالت : إن الريح  
تظلمنا كثيراً وتجور علينا ، فلا بقاء لنا نحن البعوض معها ،  
فإذا هبت لجأنا إلى الفرار ، فقال سيدنا سليمان : لأبد من  
إحضار المدعى عليه ، ودعا الريح فإذا بالبعوضة قد طارت ،  
فقال : فكيف نحكم على قضية في غياب مدعيها ؟ !

وكذلك أصحاب الديانات الكثيرة وفي مقدمتها الديانة  
البرهمية في الهند ، وكهناتها وسدنتها ، وقصة الصراع بين  
الكنيسة النصرانية والعلم في أوروبا مشهورة ، وكتاب درابر  
الأمريكي : (Conflict between Religion & Science) الصراع بين  
الدين والعلم من الوثائق التاريخية والكتب المنيرة المليئة  
بالمعلومات والأضواء ، وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش  
الدينية العقائدى (Courts of Inquisition) في أوروبا في  
القرون الوسطى والاضطهاد الكنسى إلى اثني عشر مليوناً

(م ٦ — الإسلام — أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية)



( ١٢٠٠٠٠٠٠ ) ( ٨ ) ، وهو ضعف عدد ضحايا الحرب العالمية الأولى ، فقد بلغ ستة ملايين وأربع مائة ألف نفس ( ٦٤٠٠٠٠٠ ) .

ونزل القرآن وقد شرف قدر العلم ورفع منزلة العلماء إلى درجة لا يوجد لها مثيل في الصحف السابقة ، وفي الديانات القديمة ، وأضفى على العلم والعلماء نعوتا بلغت به إلى درجة أدنى من درجة الأنبياء وفوق كل درجة من درجات البشر ، فحسب القارىء قوله تعالى :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (٩) ، وقوله لرسوله : « وقل رب زدنى علماً » (١٠) وقوله : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (١١) ، وقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (١٢) وقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١٣) .

وأما الحديث النبوى فيكفى القارىء منه قوله — ﷺ — :

(٨)

John Davenport : Apology for Muhammad & Quran.

- (٩) سورة آل عمران الآية ١٨
- (١٠) سورة طه الآية ١١٤
- (١١) سورة الزمر الآية ٩
- (١٢) سورة المجادلة الآية ١١
- (١٣) سورة فاطر الآية ٢٨

« فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » (١٤) ، وقوله :  
« إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا  
درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (١٥) .

ومن هذا الفتويه بشأن العلم والحث عليه ، انبثق ذلك  
النشاط ، وبكلمة أصح ، الحماس العلمى والتقانى فى سبيل  
العلم فى تاريخ الإسلام ، وانطلقت هذه الحركة العلمية  
العالمية الخالدة التى مساحتها الزمنية من أكبر المساحات  
الزمنية ، والمساحة المكانية من أكبر المساحات المكانية ،  
والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين (١٦) .

وتكفى هنا شهادة لباحث غربى كبير ومؤرخ فرنسى  
شهير وهو الدكتور « غوستاف لوبون » ، يقول فى كتابه المشهور  
« حضارة العرب » .

---

(١٤) رواه الترمذى قال حديث حسن .

(١٥) رواه أبو داؤد والترمذى .

(١٦) ليرجع إلى معرفة هذه المساحات ولمعرفة التنوع  
والتفنن فى الموضوعات ، إلى كتب وضعت فى ذكر المؤلفات التى  
ألفها علماء الإسلام فى عصور وأنحاء مختلفة ، ونذكر على سبيل  
المثال « كتاب الفهرست » لابن النديم ، و « كشف الظنون » ،  
للحاج خليفة جلبى ، و « معجم المصنفين » للعلامة محمود حسن  
التونكى ( ستون مجلداً ويحتوى على عشرين ألفاً من الصفحات  
وعلى تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ) و « الثقافة الإسلامية فى  
الهند » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ، طبع مجمع اللغة  
العربية بدمشق و « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان الألمانى ،  
و « تاريخ التراث العربى » لفؤاد سزكين .

« والإنسان يقضى العجب من الهمة التى أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أمم تساوت هى والعرب فى ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التى روى « بنيامين التطلى » المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها فى الإسكندرية ، وهذا عدا اشتغال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليلة وقرطبة إلخ ، على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وكل ما يساعد على البحث العلمى ، وكان للعرب فى أسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان فى مكتبة الخليفة الحكم الثانى بقرطبة ستمائة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخوا العرب ، وقد قيل بسبب ذلك إن « شارل الحكيم » لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع فى مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت » (١٧) •

وكان دور البعثة المحمدية والدعوة الإسلامية فى توجيه العلم إلى الهدف الصحيح وحمله على أداء دوره الإيجابى البناء النافع المجدد المنقذ من الحيرة والاضطراب ، والتناقض والارتياب ، أكبر أهمية وأكثر قيمة من دورها فى تنشيط حركة العلم وتوسيعها •

---

(١٧) حضارة العرب ص ٤٣٤ تأليف الدكتور غوستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر .

وذلك أن وحدات العلم كانت مبشرة بل كانت في أغلب الأحيان متناقضة ، فعلم الطبيعة يخالف الدين ، وعلم الحكمة يحارب الدين ، حتى علوم الرياضة والطب البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص فيها أحياناً بنتائج سلبية إلحادية ، فكان في اليونان التي فاقت العالم المعاصر لمدة قرون في علوم الفلسفة والرياضة ، علماء إما مشركون وإما ملحدون ، وأصبحت علومها ومدارسها الفكرية خطراً على الدين وحجة وقدوة للملحدين •

فكان أكبر حسنات الإسلام أنه دل على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم ، وقد تيسر له ذلك لأنه بدأ رحلته في مجال العلم والمعرفة بداية صحيحة ، بدأها بالإيمان بالله والاستعانة به والاعتماد عليه ، عملاً بقوله تعالى لرسوله : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وصحة البدايد — في غالب الأحيان — كفيلة بصحة النهاية •

فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتشف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض ، وهي معرفة الله تبارك وتعالى وذلك الذي مدح الله به عباده المؤمنين ، فقال : « ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففقتنا عذاب النار » (١٨) •

وكذلك كانت تبدو الوحدات الكونية — من الظواهر والحوادث والتغيرات — متناقضة مضادة توقع الإنسان في

حيرة واضطراب ، وقد تؤدي إلى الكفر والإلحاد ، والطعن والاعتراض على الخالق ومدبر الكون ، فدل العلم الإسلامى المؤسس على الإيمان والقرآن على الوحدة التى تجمع بين هذه الوحدات الكونية وهى إرادة الله الغلبة وحكمته الباهرة .

وقد أشار عالم غربى كبير هو « هيرالد هوفدنج » الألمانى إلى أهمية العثور على هذه الوحدة ودورها الفعال فى حياة الإنسان ومسيرة العلم والأخلاق ، يقول :

« إن فكرة كل دين قائمة على التوحيد ، وهى تقوم على أن علة الوجود لجميع ما فى الكون واحدة — وبغض البصر عن أهمية المشاكل التى تحدث بهذه الفكرة بصورة لازمة — يخلف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهما على الطبيعة الإنسانية ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأن جميع الأشياء فى العالم مرتبطة حسب قانون واحد ، بغض النظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم بكون العلة واحدة أن يكون القانون واحداً ، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هذه الوحدة فى الكثرة المشاهدة فى العالم فى أذهان الناس ، الفكرة التى كان الانسان غير المثقف بمعزل عنها بتأثير وجود الكثرة فى المظاهر الطبيعية التى كان يتيه ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذى يربط هذه الكثرة » (١٩) .

وبذلك أصبح العلم هادفاً ، نافعاً ، موصلاً إلى الله تعالى ، مركزاً جهده على ما ينفع الإنسانية ويسعد المجتمع والمدنية ، وكانت أكبر منه على الفكر الإنساني والمجهود الإنساني فقد غير مصير الإنسانية ومجرى الفكر البشرى •

وقد اعترف علماء الغرب بفضل القرآن على العلوم والفكر الإنساني ، نكتفى هنا بشهادتين :

يقول مارغليوث (G. Margoliouth) الذي عرف بالتحامل على الإسلام ، في مقدمته لترجمة رادول (J.N. Rodwell).

« إن مما اتفقت عليه كلمة الباحثين أن القرآن يحتل مكانة ممتازة في الصحف الدينية العظيمة ، بالرغم من أنه أحدث سناً في هذه الصحف (٢٠) التي صنعت التاريخ ، ولكنه يسبق الجميع في التأثير المثير للحيرة على الإنسان ، إنه أوجد فكراً إنسانياً جديداً ، وأرسى قواعد مدرسة خلقية متميزة » (٢١) •

ويقول Hart Wighischfeld :

« لا داعى إلى الاستغراب إذا قيل إن القرآن ينبوع للعلوم ، إن كل ما حدث عنه القرآن من الأرض ، والحياة الإنسانية ، والتجارة والحرفة ، كان موضع دراسة العلماء

(٢٠) يعنى آخرها نزولا •

(٢١)

Rew. G. Margoliouth : In Introduction to the Koran  
By Rev. J.M. Rodwell, London, 1918.

والمفسرين ، فألقوا عليه الأضواء في كتبهم وتفسيرهم للقرآن ،  
وفتح ذلك مجالا واسعا للبحث والتأمل فيها ، تمهدت عن  
طريقه طرق تقدم العلوم في المسلمين ، إنه لم ينحصر تأثيره  
في العرب ، بل إنه حمل الفلاسفة اليهود على أن يقتفوا آثار  
العرب في المسائل الدينية ما بعد الطبيعة ، ولا داعي إلى ذكر  
ما استفاد علم الكلام المسيحي من بحوث العرب في  
الإلهيات » (٢٢) •

---

(٢٢)

Hartwig Hirschfeld : New Researches into Composition and Exegesis of the Quran — London, 1902, P. 9.

## ٨ - استخدام العلم والعقل والانتفاع به حتى في

### القضايا الدينية ، والحث على النظر في الأنفس والآفاق

لا نعرف ديناً من الأديان ولا صحيفة من الصحف السماوية ، دعا إلى استخدام العقل والانتفاع به وإلى التفكير والاستنتاج ، وربط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات ، والاعتبار والادكار ، ودم تعطيل ما وهب الله الإنسان من صلاحية التأمل فيما حوله ، والإعراض عن آيات الله في الأنفس والآفاق ، والبلاد والأمم ، وما مضى من مثلات وعبر في حياة الأمم ، وما ظهر من نتائج الأعمال والأخلاق — على مستوى الأفراد والأمم والحكومات والشعوب — مثل ما فعله القرآن •

إنه استحث على استخدام الحواس الظاهرة التي من أهمها العين ، والانتفاع بها في الرؤية الصحيحة حتى يؤدي من البصارة إلى البصيرة ، هذه أولى الخطوات فيقول :

« أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامها وأنفسهم أفلا يبصرون » (١) •

---

(١) سورة السجدة — ٢٧ •



وذم تعطيل هذه القوة العظيمة التي هي وسيلة الاهتداء ،  
فقال :

« فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا  
كثير والله بصير بما يعملون » (٢) •

ويقول : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا  
تتفكرون » (٣) •

ويقول : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير  
والسميع ، هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون » (٤) ، ويقول :  
« قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات  
والنور » (٥) ، ويقول : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا  
الظلمات ولا النور » (٦) ، ويقول في نهاية الزجر :

« وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم  
عنها معرضون » (٧) ، ويثير الغيرة في أصحاب الأبصار  
فيقول : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » (٨) •

---

(٢) سورة المائدة — ٧١ .

(٣) سورة الأنعام — ٥٠ .

(٤) سورة هود — ٢٤ .

(٥) سورة الرعد — ١٦ .

(٦) سورة فاطر — ١٩ .

(٧) سورة يوسف — ١٠٥ .

(٨) سورة الحشر — ٢ .

أما حث القرآن على استخدام العقل وإثارة الغيرة في أصحاب العقول ، فقد تكرر في القرآن كلمة « تعقلون » ، حتى بلغ عدد ما ورد فيها إلى ثلاث وعشرين (٢٣) آية جاء فيها : « لعلكم تعقلون » « أفلا تعقلون » وقوله : « إن كنتم تعقلون » نذكر على سبيل المثال آيات :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (٩) ، « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » (١٠) ، « وللدار الآخرة خير للذين ينتقون أفلا تعقلون » (١١) ، « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » (١٢) ، « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » (١٣) ، « ويصف أهل جهنم بعدم الانتفاع بهذه الحاسة فيقول : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » (١٤) ، كذلك وردت كلمة « يعقلون » في مقام المدح أو مقام الإثبات أكثر من عشرين مرة .

كذلك شأن القرآن مع الدعوة إلى التفكير ومدح الذين يتفكرون ، وذم الذين لا يتفكرون ، وقد جاءت هذه الكلمة إحدى عشرة مرة في القرآن كقوله تعالى : « الذين يذكرون

- 
- (٩) سورة البقرة — ٢٤٢ .
  - (١٠) سورة آل عمران — ١١٨ .
  - (١١) سورة الأعراف — ١٦٩ .
  - (١٢) سورة الأنبياء — ١٠ .
  - (١٣) سورة الصافات — ١٣٨ .
  - (١٤) سورة الملك — ١٠ .

الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض» (١٥)، «فاقص القصص لعلهم يتفكرون» (١٦)، «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (١٧) .

وكانت نتيجة ذلك — زيادة على الاهتداء إلى الحقيقة الكبرى ، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله في هؤلاء المستخدمين للعقل والتفكير على الطريقة الصحيحة ، « ربنا ما خلقت هذا باطلا » (١٨) — ، هذا النشاط الفكري العالى في كل مجال من مجالات العلوم والصنائع والمدنية ، والذي ظهر أثره في العالم كله ، وكأنما فتحت كوة ومنفذ واسع يدخل منه النور والهواء الطلق ، وكأنما كسر أو فتح ذلك القفل الذي وضعه أعداء الحرية والتفكير السليم أو الممثلون المزورون للديانات القديمة ، على العقل البشرى ، وانتبه العالم من سباته العميق الذي طال قروناً وآلافاً من السنين ، وبدأ يمسح عن عينيه آثار النوم العميق ، ويتقدم بخطى سريعة إلى تدارك ما فاتته من التقدم والرقى وتذليل العقبات وإزالة العوائق والحواجز في سيره الطويل ، يحدث عن هذا الأثر العالى وعن هذه الهزة العنيفة والرفيقة في وقت واحد عالم فرنسى كبير ، فيقول جوليفه كستلو Jolivet Castelot في كتابه

« قانون التاريخ » (La Loi De L. Histoire) :

- 
- (١٥) سورة آل عمران — ١٩١ .
  - (١٦) سورة الأعراف — ١٧٦ .
  - (١٧) سورة الرعد — ٣ .
  - (١٨) سورة آل عمران — ١٩١ .

« كان التقدم العربى بعد وفاة الرسول عظيماً ، جرى على أسرع ما يكون ، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام ، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة ، قامت فى كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره فى الفنون والآداب ، والشعر والعلوم ، وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون ، مشعل النور العقلى وتمثلوا جميع المعارف البشرية التى لها أساس بالفلسفة ، والفلك ، والكيمياء والطب والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التى استخدموها بقريحة وقادة للغاية ، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، إلا أنها باهرة الأثر ، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها » .

ويتقدم فيقول : « ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثر ، فإن العمل الذى تم حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنية مدهشة ، وإن أوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التى سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً فى القرون الوسطى ، وإن أوروبا لتتجلى لنا منحنىة جاهلة أمام المدنية العربية ، وأمام العالم العربى والآداب والفنون العربية ، وأوروبا تدين بالهواء النافع الذى تمتعت به فى تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون

ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلمائها هم حملة  
لوائها الخفاق » (١٩) •

ويقول غوستاف لبون (Gustave Lebon) :

ينسب الناس إلى باكون (Francais Bacon) قاعدة التجربة  
والملاحظة والمنطق الاستقرائي (Inductive Logic) وهما الأصل  
في أساس البحث العلمى الحديث ، بيد أن الواجب أن يعترف  
اليوم أن هذه الطريقة كلها هى من مبتدعات العرب •

ويقول Robert Driffault فى كتابه The Marking of  
Humanity :

« ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة  
الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير » (٢٠) •

ويقول : « : لم تكن العلوم الطبيعية ( التى يرجع فيها  
الفضل إلى العرب ) هى التى أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن  
الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوربا تأثيرات كثيرة  
ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا » (٢١) •

---

(١٩) الإسلام والحضارة العربية ، للاستاذ محمد كرد على ،  
ج/٢ ، ص ٥٤٣/ - ٥٤٤ .  
(٢٠) أيضاً ، ص ٢٠٢ .  
The making of Humanity P. 202. (٢١)

٩ - وجود أمة تضطلع بمسئولية الوصاية على العالم

والحسية على الأخلاق وسلوك الأفراد والأمم

إن مما شهد به التاريخ الإنسانى الطويل وعلم النفس والأخلاق ، أن الغايات السامية والتعاليم الفاضلة والنماذج العلمية الرفيعة ، لا تقوم — وإذا قامت لا تدوم — إلا إذا كانت وراءها جماعة من البشر — وبالأصح أمة من الناس — تحمل دعوتها وترفع رايتها وتجاهد فى سبيلها وتمثلها عملياً .

لذلك نرى أن تعاليم بعض الرسل صلوات الله عليهم — فضلا عن المصلحين ومعلمى الأخلاق وأساتذة الحكمة الكبار — لم تعيش زمناً طويلاً لعدم وجود أمة تحمل رسالتهم وتتفانى فى سبيلها وتمثلها فى حياتها ، وبمدنيتها وحكوماتها ومجتمعاتها ، فأصبحت الحياة فى المناطق التى بعثوا فيها كماء فائض له درجة واحدة من الارتفاع ، وأصبحت الشعوب والأمم قطعانا من الغنم لا راعى لها .

ولما قضى الله بأن يكون محمد — ﷺ — هو الرسول الأخير وخاتم النبيين لا يكون بعده نبي يبعث ، وكتاب ينزل

من السماء ، أمن البشرية من هذا الخطر ، وبعث مع محمد ﷺ — أمة بأسرها ، فكانت البعثة المحمدية بعثة مقرونة ، بعثة نبي مرتبطة ببعثة أمة ، فإن الله سبحانه وتعالى يصف أمته بصفات لا تنطبق إلا على مبعوث — من غير نبوة — مأمور من الله فيقول :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) •

ويقول : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (٢) •

وقد جاء في الحديث النبوي نفس التعبير ، فقال عليه الصلاة والسلام لجماعة من الصحابة رضى الله عنه : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (٣) •

وقد كان هذا الشعور بمسئولية البعثة وبمسئولية المأمورية يملأ جوانح الصحابة رضى الله عنهم ، والتابعين لهم بإحسان ، فحين سأل « رستم » قائد قواد الفرس سيدنا « ربيع بن عامر » (٤) ، الذى أرسله القائد العام لجيش المسلمين سيدنا « سعد بن أبى وقاص » رضى الله عنه على طلب من رستم ،

---

(١) سورة آل عمران — ١١٠ •

(٢) سورة البقرة — ١٤٣ •

(٣) أخرجه البخارى •

(٤) صحابى ، راجع « الإصابة » ج ١ ، ص ٥٠٣ •

فقال له ما الذى جاء بكم ؟ فأجاب بقوله : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادته وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٥) .

وهذا هو الشيء الذى أثر فى مصير الإنسانية ، وكانت — بالنسبة إلى الناس — تجربة جديدة فى تاريخ الديانات وفى تاريخ مصائر الأمم وفى تاريخ الاتجاهات أحدث تحولاً فى التاريخ ، لأن واقع العالم الإنسانى الذى كان يعيشه فى القرن السادس المسيحى — وهو الشأن فى كل زمان — كان أوسع وأسمى من أن يؤثر فيه أفراد صالحون .

إن القرآن يشهد بوجود أفراد صالحين فى اليهود المغضوب عليهم ، فيقول : « ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم والآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين » (٦) .

لكن لم يكن لهم أثر فى المجتمع الإنسانى وفى المسيرة الإنسانية ، لأنهم أفراد ، والأمم لا تحسب للأفراد حساباً ، فما زال ولا يزال فى كل زمان ومكان أفراد صالحون يتميزون عن سائر الناس فى بعض أعمالهم وأخلاقهم وعباداتهم ، ولكن الفراغ الموجود والأزمة الموجودة على مستوى الأمم

---

(٥) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٣٩ .

(٦) سورة آل عمران — ١١٣ — ١١٤ .



والشعوب وعلى مستوى المدنية والاجتماع ، لا تملأ إلا إذا كان الصلاح ، وإذا كانت القدوة الحسنة ، وإذا كانت النماذج العملية ، على مستوى أمة ، وعلى مستوى مجتمع إنسانى يمثل التعاليم النبوية السامية والمبادئ والأخلاق الفاضلة والسلوك الفردى والاجتماعى المثالى ، على صعيد الحكومة والسياسة ، والتجارة والمعاملات والحياة المنزلية والاجتماعية ، والمعاملة مع الأفراد والجماعات ، والشعوب والحكومات ، وفي حالة الرضا والغضب ، وفي الصلح وساحة الحرب ، وفي الفقر والرخاء ، وكانت الطابع العام للجماعة والأمة ، وسمتها البارزة .

وكذلك كانت الصحابة رضى الله عنهم الذين نشأوا في أحضان النبوة وتخرجوا في مدرسة الإيمان والقرآن ، وقد أحسن أحد علماء الغرب المنصفين المطلعين على تاريخ الأمم والمدنيات تصوير الجيل الذى كان غرس النبوة وزرع القرآن ، وأحسن الإشارة إلى سماتهم البارزة المشتركة ، يقول الفاضل

الألمانى كاتانى (Caetani) فى كتابه « سنين الإسلام » :  
« لقد كان هؤلاء الصحابة ( الكرام ) ممثلين صادقين لتراث رسول الله الخلقى ودعاة الإسلام فى المستقبل ، وحملة تعاليم محمد — ﷺ — التى بلغها إلى أهل التقوى والورع ، لقد رفع بهم اتصالهم المستمر برسول الله وحبهم الخالص له ، إلى عالم من الفكر والعواطف لم يشهد محيط أسمى منه وأرقى مدنية واجتماعا ، والواقع أن هؤلاء الصحابة كان قد حدثت

فيهم تحولات ذات قيمة كبيرة من كل زاوية ، وأثبتوا فيما بعد في أصعب مناسبات الحروب أن مبادئ محمد — ﷺ — إنما بذرت في أخصب أرض وأنبتت نباتاً حسناً ، وذلك عن طريق أناس ذوى كفاءات عالية جداً ، كانوا حفظة الصحيفة المقدسة وأمناءها وكانوا محافظين على كل ما تلقوه من رسول الله من كلام أو أمر ، لقد كان هؤلاء قادة الإسلام السابقين الكرام الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلامى وعلماءه ومحدثيه الأولين « (٧) » .

وقد نيطت بهذه الأمة الإسلامية مسئولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، ومسئولية القيام بالقسط والشهادة لله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتبار نفسها أمة تسأل يوم القيامة عن مدى قيامها بهذا الواجب وتحاسب على تفريطها في ذلك وانشغالها بنفسها ، فيقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولا يجرمكم شنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (٨) .

ويحذر من تفريطها في أداء واجبها وما يجز ذلك على

(٧)

Caetani (Annalidell Islam) vol. ii, P. 429.

T.W. Arnold : Preaching of Islam, London, 1935.

(٨) سورة المائدة : ٨ .

الإنسانية من الشقاء والبلاء ، وانتشار الفتنة والفساد ،  
فيقول للمجموعة الصغيرة التي كان لا يتجاوز عدد أفرادها  
بضع مآت في حياة المدينة الأولى ، وقد أمرت بالتآخي وتكوين  
الخلية الإسلامية القائمة على أساس العقيدة والدعوة .

« إلا تقفلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » (٩) .

فكيف بالأمّة الإسلامية التي تملأ الأرض وتملك حكومت  
كبيرة وطاقات إنسانية غنية ، إذا أخلت بمركزها القيادي  
الدعوى ، أو بواجبها الاجتماعي ، وهو الصبغة على الأخلاق  
والميل والاتجاهات ونصر المظلوم ومنع الظالم من الظلم ؟

ويذكر القرآن هذه الأمّة بهذا المركز القيادي الدعوى ،  
والواجب الإصلاحى وبمسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن  
المنكر ، محيلاً ذلك على الأمم الماضية ، مثيراً للشعور وبالمسئولية  
في الأمّة (١٠) في الحاضر ، فيقول :

---

#### (٩) سورة الأنفال — ٧٣ .

(١٠) وقد أحسن شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال بيان هذه  
الحقيقة في قصيدته التي عنوانها : « برلمان إبليس » فذكر على  
لسان رئيس البرلمان ( إبليس ) الخطر يتهدد النظام الإبليسى  
بوجود المسلم ، إذا استيقظ وشعر بمسئوليته للعالم والأمم :  
فيقول : « اضربوا على آذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر  
طلاسّم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن  
يطول ليله ، ويبطئ سحره ، اشغلوه يا إخوانى ! عن الجد  
والعمل ، حتى يخسر الرهان في العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (١١) •

وهذا يستوجب أن يكون عمل التأثير في الحضارة الإنسانية واستعراضها بين آونة وأخرى من جديد ، والحيلولة بينها وبين عناصر التدمير والإبادة والاتجاهات المفسدة الهدامة مستمرا •

---

عبدا لغيره ، ويهجر هذا العالم ، ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره ، زهدا فيه واستخفافا بخطرته ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا ! لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعيسه « ، (روائع إقبال ، ص ١٢٥ - ١٢٦) •

(١١) سورة هود - ١١٦ •

## ١٠ - الوحدة العقائدية الحضارية العالمية

وأخيراً لا آخر ، تلك الوحدة العالمية لم يشهد التاريخ مثلاً في السعة والعمق والمتانة في أدوار الحضارة البشرية والمجتمع الإنساني المختلفة ، وهى التى قامت - ولا تزال قائمة - على أساس وحدة العقيدة ، وهى عقيدة التوحيد ، والإيمان بنبوّة محمد - ﷺ - والحياة بعد الموت - ووحدة النظرة إلى الظواهر الكونية والقدرة الإلهية وتعليلها وتقييم ماهية الأشياء وقيمتها على أساس الإيمان بالله وغاية الخلق والتكوين وكون هذه الحياة محدودة عارضة ، والإيمان بالقيم والمثل التى دعا إليها الإسلام ، ومثلتها أسوة الرسول - ﷺ - وحياة الصحابة والجيل المثالى الأول على تفاوت وتنوع فى التمسك بها ، والاستقامة عليها ، تنوع تقتضيه الفطرة الإنسانية ، واختلاف العصر والبيئة والتربية ، والمؤثرات الخارجية ، ولكن القدر المشترك بين المجتمعات الإسلامية فى كل عصر بعد ظهور الإسلام ، أبرز شكلاً وأكبر حجماً وأعماق جذوراً من كل قدر مشترك بين أجزاء أمة واحدة وأتباع ديانة واحدة .

ثم الوحدة الحضارية - إلى حد بعيد - على أساس الأحكام الشرعية أو التعاليم الخلقية ، على اختلاف فى المستويات ومدى العمل بهذه الأحكام والتعاليم ، اختلاف لا

مفر منه مع اختلاف طبائع الشعوب التي دانت بالإسلام وطبائع البلاد والعصور ، ونظم الحكم — ولكنها حضارة تمتاز بالطابع الإسلامى الخاص ، فهي حضارة تتميز في العقيدة بالتوحيد ، في الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها ، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بنتقوى الله — إذا قورنت بالحضارات الأخرى — والحياء والتواضع ، وفي ميدان الكفاح بالسعى للأخرة والجهاد لله ، وفي الحياة الفردية والمنزلية بالعناية البارزة بـ « الطهارة » — وهى أخص من « النظافة » التى تلتقى عليها الحضارات الراقية والمجتمعات السليمة — والذبح والتركية في لحوم الحيوانات والطيور •

وأسماء المسلمين في مختلف البلاد — على تباعدها وتباينها في اللغات والثقافات — متميزة دائماً ، عربية غالباً ، مستعارة من أسماء الأنبياء والصاحبة ، وأهل البيت والصالحين من السلف يتجلى فيها عقيدة التوحيد أو مفهوم العبودية والحمد وتكثر التسمية بمحمد وأحمد حباً وتيمناً •

### سمات الوحدة البارزة :

وتتجلى هذه الوحدة الدينية والحضارية في وحدة الفرائض والواجبات وعدد من الشعائر الدينية والمناسبات الاجتماعية ، فنتقام الصلوات الخمس في أوقاتها ( على توقيت البلاد المختلفة ) وتصلى الصلوات جماعة بركعات معينة في الجوامع والمساجد ، ويستطيع كل مسلم من أى بلد كان ،

وأى لغة يتكلم بها ، أن يحضر هذه الصلوات أو يؤم الجماعة ( إذا أراد المحلون ) من غير أن يستعين بدليل وتعليمات محلية ، وصلاة الجمعة تقام باهتمام بارز .

والقرآن هو الكتاب السماوى الفريد الذى يتلى ويحفظ ويرتل فى كل الأمصار (١) ، والأذان يدوى من جميع المساجد بصيغة واحدة ، ورمضان هو شهر الصوم فى كل العالم الإسلامى مهما اختلفت الفصول والطقس والمناخات ، ويحتفل المسلمون بالعيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ويصلون ركعتين شكراً لله تعالى ، بعدهما الخطبة يحضرهما المسلمون على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم .

ويؤم الناس مكة للحج من كل صوب بعيد وفج عميق ، وذلك من غير انقطاع فى التاريخ الإسلامى الطويل ، ومن غير خضوع للتقلبات السياسية ، والتطورات الاقتصادية والاجتماعية ، وتحية المسلمين فى كل بلد سلام ( وهو السلام عليكم ) وكل ذلك طراز من الوحدة لا يوجد له مثيل فى الأمم والديانات والمجتمعات .

وقد شعر بهذه الوحدة الفريدة ونوه بها عدد من فضلاء الغرب ، وأصحاب الفكر والأقلام ، نكتفى هنا بشهادتين :

---

(١) اعتراف الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica

بأن القرآن « هو أوسع الكتب تلاوة على وجه الأرض »  
( راجع دائرة المعارف البريطانية مادة ) Mohammad.

يقول « هم لقتن جب » :

« إن الإسلام تصور منسق ظهر في أشكال سياسية واجتماعية ، ووحدة دينية ، وهذا التصور يحيط بمساحة واسعة للزمان والمكان ، وقد برزت خصائصه المختلفة في مناطق وعهود مختلفة بقدر احتكاكه بمختلف القوى الاجتماعية والسياسية المحلية ، فمثلا كانت أسبانيا في شمال غربى أفريقيا في العهود الوسطى مرتبطة بمهد الإسلام في غرب آسيا ، وكانت ثقافتها جزءاً من ثقافة هذا المركز الإسلامى ، ولكنها كانت تتميز في مجالات مختلفة وتحمل خصائص كان لها بدورها الأثر على غرب آسيا ، كذلك كانت المناطق الرئيسية الأخرى المكتفية بذاتها كشبه القارة الهندية ، وأندونيسيا ، والمناطق الصحراوية في جنوب روسيا إلى حدود الصين تحمل خصائص ومزايا إقليمية ، لكنها تحتفظ بالطابع الإسلامى المميز » (٢) •

ويقول ولفرد « كانتويل اسمث » :

« كان انتصار المسلمين انتصاراً داخلياً لدينهم ، فإنهم لم يحققوا النصر في ميدان القتال وحده ، ولم يؤثروا على جوانب مختلفة في الحياة فحسب ، بل إنهم حققوا النصر في توجيه الحياة بصورة عامة توجيهها جديداً ، وبطابع خاص ،

(٢)

Hamilton A. R. Gibb : Studies of Civilization of Islam, London, 1960, P. 3.



وهو ما يعرف بالحضارة ، وقد ساهمت في تكوين هذه الحضارة الإسلامية عوامل متعددة كالعربية واليونانية والحضارة السامية للشرق الأوسط ، وإيران الساسانية ، والعناصر الهندية ، ولكن تجلت عبقرية المسلمين في تنسيق هذه العوامل المختلفة وصهرها في بوتقة جديدة وإخضاعها لمنهج متجانس للحياة ، بدون أن تفقد هذه العوامل خصائصها الذاتية ، وعلى العكس فإنها تطورت تطوراً مطرداً ، كان ذلك هو الإسلام الذي قام بتنمية هذه العوامل وإكمالها ، وهياً لها قوة للبقاء ، إنه منح كل جانب من جوانب الحياة طابعاً إسلامياً مهماً مهماً كان أصله وعناصره التركيبية ، وهياً المنهج الإسلامى للحياة والمجتمع وحدة وقوة ، وكان للقانون الإسلامى دور جوهري في تكوين هذه القوة الموحدة ، وهو الذى قام بتنسيق جميع شعب الحياة من العبادة إلى الملكية والحكم بتياره الجارف المعين ، فإن القانون الإسلامى كان قوة موحدة تربط المجتمع الإسلامى من « قرطبة » إلى « ملتان » ، وهو الذى هياً لأفراد المجتمع الإسلامى وحدة ، وجعل سائر أعمال الحياة مجدية وهادفة بطبيعتها بالطابع السماوى ، ومنح الزمان وحدة تجعل المجتمع نامياً ممتداً ، فقد كان الملوك والسلطين يتناوبون وتقوم حكومات وتسقط حكومات لكن دورها في توجيه الحياة الاجتماعية في الأرض حسب التعاليم الربانية كان هامشياً وجانبياً » (٣) .

(٣)

Welfred Cantwell Smith : Islam in Modern History,  
New York, 1957, PP. 36-37.

إنها حضارة عجت مع اسم الله ومراقبته وصبغت  
بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدها  
عن الطابع الدينى واللون الربانى والروح الإيمانى ، وكل  
ما عارض ذلك من عصبية قومية وحمية جاهلية ، وحرب  
عنصرية ونهامة مادية ، واستهتار خلقى أو فوضوية اجتماعية ،  
فهو شئ طارئ عليها ، وافد أو مستورد من الخارج ، أو  
من رواسب البيئات والمجتمعات التى انتقل منها العنصر  
الإسلامى ، أو بسبب ضعف الثقافة الإسلامية وقلة الاشتغال  
بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ومصادر  
الإسلام الأصيلة الأولى ، فى هذه البلاد .

### سر نجاح الجهود الإصلاحية والتجديدية فى تاريخ الإسلام :

ولذلك استمرت جهود الإصلاح والتجديد ومحاربة  
الفساد ، والبدع وآثار الجاهلية فى تاريخ الشعوب والبلاد  
الإسلامية استمراراً لم يعرف مثيلها فى تاريخ الأمم والديانات  
غير الإسلامية ، وكتب لها من النجاح والانتصار ما لم يعرف  
لمحاولات الإصلاح والتقويم فى تاريخ أمم وديانات  
أخرى (٤) .

وذلك لمطابقة هذه الجهود لجوهر هذه الأمة وروحها  
ونفسياتها ، وتعبيرها عن الأسس والمبادئ التى قام عليها كيان  
هذه الأمة وانبثق عنها تاريخها وامتدادها .

---

(٤) راجع مقدمة الجزء الأول من سلسلة كتاب « رجال  
الفكر والدعوة فى الإسلام » واقرا أمثلة هذا النجاح فى أجزائها  
الأربعة .

## عمل التأثير في الحضارة الإنسانية

يجب أن يدوم ويستمر

وبعد ما شرحناه من عطاء الإسلام الحضارى وما أتخف به الحضارة الانسانية من منح ومواهب ، وما حققه من نجاح وانتصار فى إنقاذ الحضارة البشرية من الانهيار والانتحار ، ومكنها من التقدم والازدهار ، لابد من تقرير حقيقة تاريخية خالدة ، وهى أن عمل التأثير فى الحضارة الإنسانية واستعراضها بعد آونة وأخرى من جديد ، وتطعيمها بالتقديم الصالح والجديد النافع ، والحيلولة بينها وبين عناصر التدمير والإبادة والاتجاهات المفسدة الهدامة يجب أن يدوم ويستمر .

وذلك لسببين : السبب الأول أن الأمم خاضعة لعوامل جديدة من الإصلاح والإفساد ، والحياة متحركة متطورة لا تعرف الوقوف والركود ، فلا بد من مراقبتها حيناً بعد حين وسد حاجاتها المتجددة ، وقد جدت دعوات وفلسفات مفسدة هدامة فى العهد الأخير الذى انسحبت فيه الأمة الإسلامية مع الأسف ، من ميدان قيادة البشرية وانطوت على نفسها .

والسبب الثانى أن الأمة الإسلامية هى أمة الرسالة

الأخيرة وأمة الخلود ، وأمل البشرية ، فلا بد أن تظل حاملة لرسالتها ، قائمة بدورها في قيادة الركب البشرى والوصاية على العالم ، والحسبة على العقائد والأخلاق وعلاقة الإنسان بالإنسان ، والأمة بالأمة والأمم لا تعيش بالتاريخ ولا بما مثلته من دور في الزمن الماضى ، وما حققته من نجاح وانتصار فى عهد سابق ، إنما تعيش الأمم بالجهد المتواصل ، والنشاط الدائم ، والشعور بالمسئولية المستمر ، والمخاطرة بالنفس والنفيس فى كل زمان ، والجدة والابتكار ، وإنتاج المفيد الجديد ، الصالح المزيـد ، فإذا انطوت على نفسها ، وتنازلت عن منصبها ، طويت من سجل التاريخ وتناساها الزمان ، فيجب أن تنهض الأمة الإسلامية من جديد بمسئوليتها الدعوية الحضارية ، التوجيهية القيادية ، مرة ثانية .

وحقيقة علمية تاريخية أخرى ، وهى أن الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تقوم بدور التأثير فى الحضارة الإنسانية وتوجيهها ، إذا كانت متطفلة على مائدة الحضارة الأجنبية ، تغرف من بحرها وتغوص فى موجتها إلى الآذان ، إنها لا تستطيع أن تسترعى انتباهها ، فضلا أن تحمل الشعوب الأخرى على تقليدها ، إلا إذا كانت مؤمنة عميقة بالإيمان بأن حضارتها مستقلة ذات شخصية خاصة ، ربانية سماوية ، صالحة لكل زمان ومكان ، قائمة على أسس متينة ، مستفادة من الكتاب والسنة ، منبثقة من الهدايات الربانية والتعاليم النبوية ، للطهارة والعفة فيها تصور خاص ، فليست الطهارة فيها مرادفة لكلمة « النظافة » وليست العفة فيها يكفى فيها

الابتعاد عن الجنايات الخلقية فحسب ، بل هي أوسع معنى وأكثر شمولاً واحتواءً ، وأن حياتها لا تتسجم مع الحضارة الغربية التي نشأت واختمرت تحت ضغط عوامل تاريخية خاصة وفي بيئة كانت تتحكم فيها المادية ويسود عليها — في فترات كثيرة وطويلة — العداء للدين ، والثورة على الأخلاق والقيم ، وكما يقول أحد خبراء هذه الحضارة وتاريخها ( الدكتور العلامة محمد إقبال ) بإيجاز : « إن روح هذه المدنية ( الغربية ) ما عادت عفيفة طاهرة » ( ١ ) .

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات ، وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الإسراف والتبذير ، والإغراق في المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومات والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدنى المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى ، والارتجالية ومركب النقص ، وإذا توفر عندها الذكاء والأصالة ، والإيمان بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية التي تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها .

---

(١) ليراجع للتفصيل « أهمية الحضارة الإسلامية والحاجة إليها » في كتاب « العقيدة والعبادة والسلوك » ص / ١٩٨ — ١٩٩ .

## ( نبي رحمة للعالمين ودين رحمة للإنسانية )

ونختم هذا البحث التاريخي والتحليلي والاستعراض  
العالمي الهادف — بعد البعثة المحمدية — على صاحبها  
الصلاة والسلام — بما جاء في آخر كتابنا « السيرة النبوية » (١)  
ليكون مسك الختام للبحث .

لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبي — ﷺ — وبفضل تلك  
التعاليم السامية ، كما يتغير الطقس ، وانتقلت الإنسانية من  
فصل كله جذب وخريف ، وسموم وحميم ، إلى فصل كله  
ربيع وأزهار ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ، وتغيرت  
طباع الناس ، وأشرقت القلوب بنور ربها ، وعم الإقبال على  
الله ، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه ، وذوق لم  
يجربه ، وهيام لم يعرفه من قبل .

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة الباردة الهامدة ،  
بحرارة الإيمان وقوة الحنان ، واستضاءت العقول بنور  
جديد ، وسكرت النفوس بنشوة جديدة ، وخرجت الإنسانية  
أفواجا تطلب الطريق الصحيح ومحلها الرفيع ، وتحن إلى  
مكانتها السامية العالية ، فلا ترى أمة من الأمم ، وبلداً من  
البلاد ، إلا وهو يريد السباق في هذا المضمار ، ويتنافس فيه ،

---

(١) دار الشروق جدة الطبعة الرابعة .

فما ترى العرب والعجم ، ومصر والشام ، وتركستان وإيران ،  
والعراق وخراسان ، وشمال إفريقيا ، والأندلس وبلادنا  
الهند وجزائر شرق الهند ، إلا سكارى هذا الحب العلوى ،  
والفيض السماوى ، وعشاق هذا الهدف السامى ، وفقراء على  
هذا الباب العالى .

كان يبدو أن الإنسانية أفلقت واستيقظت ، وفتحت  
عيونها بعد سبات عميق طويل ، دام قروناً طويلة ، فأرادت  
أن تتدارك ما فاتها حتى عمر كل جزء من أجزائها ، وكل ركن  
من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين ، مجاهدين مصلحين ،  
مربين عارفين بالله ، متحرقين لخلق الله ، باذلين أنفسهم  
ونفسيهم لخير الإنسانية ، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من  
كل جانب ، رجال تحسدهم الملائكة ، فأشعلوا مجامر القلوب  
الباردة ، وأذكوا شعلة الحب الإلهى ، وفجروا أنهار العلوم  
والآداب ، والحكم والمعارف ، وفتحوا ينبوعاً فياضاً ، متدفقاً  
من العلم والعرفان ، والإيمان والحنان ، وأنشأوا فى نفوس  
البشر مقتناً جديداً للظلم والجور ، والعدوان والبغضاء ولقنوا  
الشعوب المضطهدة المهانة الذليلة دروس المساواة ، وضموا  
المنبوذين والمهجورين ، والمساكين الذين لفظهم المجتمع ،  
وطردهم أهلهم وعشيرتهم ، إلى صدورهم العامرة بالحب  
والحنان ، إنك تجد آثارهم ، وتلمس آياتهم على كل جزء  
من أجزاء البسيطة كمواقع القطر لا يخلو منها بيت وبر ولا مدر .  
وانظر فى جوهر أعمالهم وكيفيتها (Qualify) قضا  
عن كميتها (Quantity) وشاهد سمو أفكارهم ، وتحليقها فى

أجواء وآفاق رفيعة ، وانظر شعورهم المرهف ، وروحهم اللطيفة الوداعة الرقيقة ، وذكاءهم الوقاد ، وطبعهم السليم ، وكيف كانوا يتوجعون للإنسانية ويذوبون لها كالشمعة ، وكيف كانت نفوسهم وأرواحهم تتلوى وتذوب في نار الأسى والإشفاق ، والعطف على الخلق ، والحرص على ما فيه نفعه وصلاحه ، كيف كانوا يقعون في المهالك ، ويرحبون بالخسائر لانقاذ الناس ، ودفع البلاء عنهم ، كيف كان حكامهم ، وولاة أمورهم ، يصرفون الأمور ، ويشعرون بالمسئولية ، يعسون بالليل ويترابطون على الثغر ، وكيف كان الشعب منسجماً معهم ، مطيعاً لأوامرهم .

واقرأ — أيضاً — أخبار عبادتهم ، وزهدهم ، وحالتهم في الدعاء ، ومكارم أخلاقهم وشهادتهم على نفوسهم واحتسابهم لها ، وحبهم للصغار ، والضعفاء ، ولين قلوبهم مع الإخوان والأصدقاء ، وكرمهم وسماحهم ، وعفوهم وصفحهم عن الأعداء سوف ترى أن أحلام الشعراء والأدباء ، وخیالهم الخصب ، وقريحتهم الفياضة ، لا تصل إلى تلك القمة العالية التي وصل إليها هؤلاء في عالم الحقيقة والواقع ، ولولا تواتر ما جاء في هذا الباب واستفاضته ، ولولا شهادات التاريخ الموثوق بها ، بدت هذه الأخبار كقصص وأساطير نسجها الخيال .



إن هذا الانقلاب العظيم ، والدور الزاهر الجديد  
معجزة من معجزات محمد - ﷺ - ومآثرة من مآثر بعثته  
ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية التي عمت الأمكنة كلها  
والأرمنة كلها .

وصدق الله العظيم

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

وصدق الله العظيم

وصدق الله العظيم

## فهرس المراجع العربية

- ١ - القرآن الكريم :  
كتب الحديث :
- ٢ - الجامع الصحيح : للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى .
- ٣ - الجامع الصحيح : للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيرى النيسابورى .
- ٤ - الجامع الترمذى : للإمام أبى داؤد سليمان بن الأشعث السجستانى .
- ٥ - السنن الكبرى للبيهقى : للعلامة أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى .
- ٦ - كنز العمال : للعلامة علاء الدين المتقى بن حسام الدين البرهانفورى .
- ٧ - الإسلام والحضارة العربية : محمد كرد على .
- ٨ - أعلام النساء العربية والإسلام : عمر رضا كحالة .
- ٩ - البداية والنهاية : العلامة الحافظ عماد الدين بن كثير .

- ١٠- تاريخ أخلاق أوربا : ليكى •
- ١١- تاريخ التراث العربى : فؤاد سزكين •
- ١٢- تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ، طبع دار المعارف - القاهرة •
- ١٣- تاريخ الصين : جيمس كاركن •
- ١٤- الثقافة الإسلامية فى الهند : العلامة السيد عبد الحى الحسنى •
- ١٥- حضارة العرب : غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعتر ، مطبعة عيسى البابى الحلبي •
- ١٦- رجال الفكر والدعوة فى الإسلام : أبو الحسن على الندوى ، طبع دار القلم - الكويت •
- ١٧- روائع إقبال : أبو الحسن الندوى ، طبع دار القلم بالكويت •
- ١٨- سيرة أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها : العلامة السيد سليمان الندوى •
- ١٩- سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ابن الجوزى •
- ٢٠- ضحى الإسلام : للدكتور أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية •

- ٢١- العقد الفريد : ابن عبد ربه .
- ٢٢- العقيدة والعبادة وآلوك : أبو الحسن الندوى ،  
الجمع الإسلامى العلمى لكهنؤ .
- ٢٣- فتوح البلدان : العلامة أحمد بن يحيى بن جابر الشهير  
بالبلاذرى .
- ٢٤- الفهرست : ابن النديم .
- ٢٥- كشف الظنون : الحاج خليفة جلى .
- ٢٦- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوى  
دار القلم - الكويت .
- ٢٧- المرأة بين الفقه والقانون : الدكتور مصطفى السباعى .
- ٢٨- المرأة فى القرآن : للأستاذ عباس محمود العقاد .
- ٢٩- معجم المصنفين : محمود حسن التونكى .
- ٣٠- مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية فى مصر .
- ٣١- منوسمرتى .
- ٣٢- منو شاسترى .

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem.

2. The second part is devoted to a detailed study of the case of a single particle.

3. The third part is devoted to a study of the case of a system of particles.

4. The fourth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

5. The fifth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

6. The sixth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

7. The seventh part is devoted to a study of the case of a system of particles.

8. The eighth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

9. The ninth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

10. The tenth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

11. The eleventh part is devoted to a study of the case of a system of particles.

12. The twelfth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

## BIBLIOGRAPHY

1. Annie Besant Mrs. : The Life and Teachings of Mohamad, Madras, 1932.
2. Arnold, T.W. : Preaching of Islam, London, 1935.
3. Barith, Religion of India.
4. Briffault, Robert : The Making of Humanity.
5. Caetani Cannalideli : Islam, Vol. II.
6. Coulsen, N.L. : Islamic Surveys, The History of Islamic Law (Edinburg), 1971.
7. Draper John William : History of Conflict between Religion and Science, London, 1910.
8. Dutt. R.C. : Ancient India (191), Vol. III.
9. Devenport, John : Apology for Muhammad and Quran, London, 1860.
10. Encyclopeadia Britannica, (1927).
11. Ernest De Bunsen : Islam of True Christianity, London. 1889.
12. Gibb, H.A.R. : Whither Islam, London 1932.
13. Haine's Christianity and Islam in Spain.
14. Hamilton, A.R. Gibb, : Studies on the Civilization of Islam, London, 1960.
15. Hartwing Hirschfeld : New Researches into the Composition and Exegesis of the Quran, London (1902).

16. Jayswal, Manu and Yajnaval.
17. J.M. Rodwell, Rev. G. Margoliouth : In Introduction to The Koran.
18. Jolivet Castelot : La loi De l'Histoire.
19. Harold Hofding : History of Modern Philosophy.
20. Lawrence, E. Browne : The Prospects of Islam, London (1949).
21. Machauliffe : The Sikh Religion.
22. Malley, L.S.S.O., Popular Hinduism : The Religion of Masses, Cambridge, (1935).
23. Naidu, Sarojini : Speeches and Writings, Madras (1918).
24. Nehru, Jawahirlal : Discovery of India, Calcutta, 1949.
25. Panikhar K.M.A., : A Survey of Indian History.
26. Seva Ram Singh : Life of Guru Nanak.
27. Smith, Welfred Cantwel : Islam in Modern History, New York (1953).
28. Tarachand, Dr. : Society and State in the Mughat Period, Delhi (1941).
29. Tarachand, Dr. : Influence of Islam on Indian Culture.
30. Toyanbee, A.J. : Civilization on Trial, New York (1948).
31. Victor Choptart : The Roman World.
32. William L. Langer : An Encyclopadia of World History,

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	— هذا الكتاب
١١	— الإسلام اثره فى الحضارة ، وفضله على الإنسانية
١١	— سعة الموضوع وعالميته
١١	— أصعب العلميات وأدقها
١٣	— صعوبة تحديد مجالات التأثير
١٣	— التأثير العالمى العام
١٤	— عشرة معطيات هامة ومنح أساسية
١٧	١ — عقيدة التوحيد النقية الواضحة
١٧	— الشرك والوثنية وآثارهما فى حياة الإنسان
١٨	— عقيدة التوحيد وآثارها فى الحياة
٢٣	— أثر عقيدة التوحيد الإسلامية فى الهند
٢٥	— أثر عقيدة التوحيد فى العالم المسيحى
٢٨	— لماذا أخفقت هذه الجهود ولم تات بالنتيجة المطلوبة
٣٠	٢ — مبدا الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية



- ٢٠ — إعلان تاريخى بليغ عن الأخوة الإنسانية
- ٣٤ — الوضع الاجتماعى قبل الاسلام وتقديس  
السلالات والأفراد
- ٤٨ — دور الإسلام فى إقرار مبدأ المساوات البشرية  
وأثره العالمى
- ٤١ — فى الهند
- ٤٤ ٣ — إعلان كرامة الإنسان وسموه
- ٥١ ٤ — رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها
- ٦٥ ٥ — محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء  
والثقة والاعتزاز فى نفس الإنسان
- ٦ — الجمع بين الدين والدنيا وتوحيد الصفوف
- ٧١ — المتنافرة والمعسكرات المتحاربة
- ٧ — إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ،  
وربط مصر أحدهما بالآخر وتقويم شأن  
العلم والحث عليه
- ٧٧ ٨ — استخدام العلم والعقل والانتفاع به حتى فى  
القضايا الدينية والحث على النظر فى  
الأنفس والآفاق
- ٨٩

- ٩ — وجود أمة تضطلع بمسئولية الوصاية علم  
العالم والحسبة على الأخلاق وسلوك  
الأفراد والأمم
- ٩٥
- ١٠٢ — الوحدة العقائدية الحضارية العالمية
- ١٠٣ — سمات الوحدة البارزة  
— سر نجاح الجهود الإصلاحية والتجديدية في
- ١٠٧ تاريخ الإسلام  
— عمل التأثير في الحضارة الإنسانية يجب أن
- ١٠٨ يدوم ويستمر
- ١١١ — نبى رحمة للعالمين ودين رحمة للإنسانية
- ١١٥ — فهرس المراجع العربية
- ١١٨ — فهرس المراجع الانكليزية
- ١٢٠ — الفهرس

رقم الإيداع ٨٦/٢٦٢٥

الترقيم الدولي ٩٧٧-١٤٣٠-٦٢-٩

## هذا الكتاب

بعد ظهور الإسلام صارت طباع الناس وعقولهم تتأثر به من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، وأخذت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل في الأحشاء ، وتغيرت قيمة الأشياء في حياة الناس .

وصارت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والغباء المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه ، وكانت الأمم تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، يظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي مدنيّتهم ، وتنم عنه الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيهم حتى بعد تخلف المسلمين .

ولقد آن الأوان لصحوة إسلامية شاملة تخلص الإنسانية من آلامها وتقودها - على هدى من روح الإسلام - نحو بعث جديد ، يعمر به الكون وتسعد البشرية .

و « دار الصحوة » وهي تقدّم هذا الكتاب لقارئها العزيز تأمل أن تضع به لبنة في صرح الصحوة الإسلامية الشامخ ..  
وعلى الله قصد السبيل ،

## دار الصحوة

حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين  
شارع جمال عبد الناصر  
القاهرة

